بلال فضل




ست
الحاجة
مصر

ستِ الحاجّة مصر
مَحاولة لَمّ هَمّ ما يتلمّ في كتاب

بلال فضل

تصميم الغلاف: وليد طاهر

**الطبعة الأولى ٢٠١٢**

تصنيف الكتاب: سياسة / مقالات



٨ شارع سيبويه المصري
مدينة نصر - القاهرة - مصر
تليفون: ٢٤٠٢٣٣٩٩
www.shorouk.com

رقم الإيداع ٣٠٩٩/ ٢٠١٢
ISBN 978-977-09-3110-3

بلال فضل




محاولة لم هم ما يتلم في كتاب

دار الشروق

هناك رفاق طريق، وهناك رفاق هم الطريق ذات نفسه

إلى الرفيق الطريق

حمدي عبد الرحيم

أخي الذي لو ولدته أمي لما كنت أهديته هذا الكتاب

آه يا حمدي لو تذكرنا كل ضحكة ضحكناها سويًّا

أما كنا الآن لنبكي من فرط السعادة؟!

# المحتويات

## أجدع من أي مقدمة

على إسم مصر التاريخ يقدر يقول ما شاء
أنا مصر عندي أحب وأجمل الأشياء
باحبها وهي مالكة الأرض شرق وغرب
وباحبها وهي مرمية جريحة حرب
باحبها بعنف وبرِقة وعلى استحياء
واكرهها والعن أبوها بعِشق زي الداء
واسيبها واطفش في درب وتبقى هي ف درب
وتلتفت تلاقيني جنبها في الكرب
والنبض ينفض عروقي بألف نغمة وضرب
على إسم مصر

أنا الذي مشيت ادوّر باشتياق وحنين
على مصر.. والمشي خدني من سنين لسنين

لحد ماسنينها وسنيني بَقُم واحد
وعاصرتها يوم بيوم لم فاتني يوم واحد
وحضرت شاهد عيان مَولد وموت ملايين
مازعلت من كلمة قد «البركة في الجايين»
مين هم دول يا جدع.. ما توحّد الواحد
البركة فينا وفي السامعين بالواحد
أنا قلتها بنرفزة.. من غِيرة الواحد
على إسم مصر

على إسم مصر ارفعوا الأنخاب واملوا لي
شدوا الوتر ع القمر يا شباب وغنوا لي
نسكر على حُبها بالفن والإحساس
نِسكر ودمع الحماس يملا لنا تاني الكاس
إحنا يا حلوة الفِدا بس اطلبي وقولي
يا سمرة بعيون كده وسنتك لولي
وغِنوة الحب تعلا ويسمعوا الحُراس
يصفّروا ويحضروا بفرقة طبول ونحاس
ويتقفل سجن مصر أمام عيون الناس
على إسم مصر

**أبونا صلاح جاهين**

## تصدير مهم لحماية المستهلك

الكلام ده قبل الثورة، ولَّا بعد الثورة؟ من حقك أن تسأل هذا السؤال وأنت بصدد اتخاذ قرار شراء هذا الكتاب (إذا كنت تقوم بسرقته من على شبكة الإنترنت فليس من حقك السؤال، حَمِّل وأنت ساكت.. وأنا لن أسامحك على فكرة).

لكي أجيب عن سؤالك، أنا بصراحة لا أدري متى ستقرأ هذا الكتاب، هل ستقرؤه في نفس عام صدور طبعته الأولى، أم في العام الذي يليه، أم بعدها بعشرة أعوام، أم بعدها بخمسين عامًا، لا أدري هل سيكون عندك دم وتشتريه، لا أدري هل سأكون حيًّا أم ميتًا، وهل ستذكرني بالخير أم بالشر وأنت تقرؤه، لا أعلم، فاللُّقا نصيب والخطوة نصيب، وأنت ستقرأ هذا الكتاب عندما يكون ذلك من نصيبك، وعندما تقرؤه إذا شعرت أن السطور التي تقرؤها في هذا الكتاب لم يَعد لديها صدًى في واقعك المحيط بك فقد اكتمل نجاح ثورتنا، أما إذا شعرت أنها لا تزال جزءًا من واقعنا، فتأكد إذن أنك لا زلتَ تحتاج إلى ثورة.. ثورة تكتمل.

## صباحِك زي وِشك يا مصر.. جميل وحزين

صباح الخير يا مصر.. صباح الخير على الناس المرهقين من عناء الحياة، والدايرين في الساقية اللي منصوبة لهم من سبعة آلاف سنة.. الناس اللي عايشة اليوم بيومه.. كل أملها يعدّي من غير أي خساير.. مابتفكرش في إمبارح عشان ماتتحسرش.. مابتفكرش في بكرة عشان ماتتقهرش.. مابتفكرش في النهارده عشان ماتتنقِطش.. صباح الخير على ضحكة عالية في قهوة شايها مايتشربش.. على شابّ بيقوم لست كبيرة في الأتوبيس.. على كوباية شاي باللبن وحتة بقسماط بعد صلاة الفجر جنب السيدة نفيسة.. على قهوة في الحسين مابيعديش عليها حسن بشندي.. على سينما زحمة والضحك طالع من القلب للرُّكَب.. على سور الأزبكية وكُتبه المعتقة..على عُشاق فُقرا مش لاقيين شقة محافظة فبيخطفوا الفرحة متداريين في صخور الكورنيش وورا شجر النيل..على صوت الشيخ السيد متولي وهو بيقرا سورة يوسف وبيخلينا نعيط على سيدنا يعقوب اللي ابيضّت عيناه من الحزن.. صباح الخير على كل الناس اللي بتشقى عشان تجيب اللقمة من بُقّ الأسد ومراته.. على عربيات الكبدة والسجق لحمة

الفقير، وعربيات الدوم تفاح الفقير، وعربيات السوبيا خمرة الفقير.. على طبق كشري خالي العدس ورد زيادة وغرقان في الدقة..على فطاطري الحسين اللي سمّى نفسه بيتزا الحسين فباظ من ساعتها.. على مطعم العدوي بتاع ميدان الجيش يعني أحلى رصة فول وطعمية بمستلزماتها وبرخص التراب.. على أفران العيش في إسكندرية.. على البلكونات اللي مافيهاش كراكيب ولا بصل ولا توم.. فيها كرسيين وكوبايتين شاي وبصة رضا وآهة شوق.. على كل صالة بتلم الناس اللي مش عارفة تتلم على نفسها.. على كل نكتة أبيحة تتقال بصوت عالي.. صباح الخير على الطاهرة رئيسة الديوان ودراويشها وسجاد جامعها.. على روح سيدنا الحسين اللي مش مدفون هنا أساسًا.. صباح الخير على كل سطر كتبه نجيب محفوظ، وكل شجرة سقاها علاء الديب، وكل فيلم كان هيعمله أحمد زكي، وكل كرسي ماتضايقش لما صلاح جاهين قعد عليه.. صباح الخير على الناس اللي واقفه في طابور حكومة رخم بتتخانق على الدور عشان تسلّي بعضها.. على مدرجات الدرجة التالتة وناسها اللي مش هنا أساسًا.. على الأهلي لما بيسكع الزمالك ستة وساعات أربعة وساعات اتنين.. صباح الخير على كل إيدين بتسلم عليك باهتمام بعد الصلاة.. وعلى كل إمام مابيطولش في الوقوف ويطول في السجود.. صباح الخير على سينمات الدرجة التالتة والفاكهة اللي مش مرشوشة مبيدات، وسعاد حسني وهي بتغني أنا ضاع مني حاجة كبيرة أكبر من إني أجيب لها سيرة.. صباح الخير بالليل على فرشات جرايد الطبعة الأولى وحفلات الميدنايت والقهاوي المناوبة.. على العيال وهي بتهز أكياس الكشري الصبح وهي رايحة المدرسة.. على بتوع الزلابية

اللي واقفين قُدام المدارس خايفين من البلدية.. صباح الخير على أكشاك السمك في أبو قير والترام الأصفر وسيدي البوصيري وبردته والمراجيح اللي ورا ضريحه.. وعم نفنف بتاع الكبدة في المنشية وطعمية أبو أحمد الأكتع في شارع عمر بن الخطاب.. صباح الخير على وقفة النواصي والقمم والخناقات «البوق» اللي الناس بتفِش فيها غلها وبتوفر مادة فرجة للواقفات في البلكونات.. صباح الخير على كل جميلة تغري بإثم النظرة الثانية والتاسعة.. صباح الخير على الناس اللي بتكوي قمصانها وتبص على المراية قبل ماتنزل.. على شوارع الزمالك وجاردن سيتي والمعادي اللي تشرف وتفتح النفس للحياة، وعلى كل اللي بيمشوا فيها وبيفرحوا اللي ساكنين فيها.. صباح الخير على حب الجامعة ومظاهرات الجامعة وكل إفّيه اتقال على أي معيد رخم في أي سكشن.. صباح الخير على الأود اللي فوق السطوح والشقق المفروشة والإيجار اللي مابيتكسرش..على صينية الأكل اللي بتجيلك من الجيران قبل مايتفقوا معاك تدي ابنهم درس.. على قرآن الفجر وصوت النقشبندي وهو بيقول مولاااااي إني ببابك قدْ بسطتُ يدي.. صباح الخير على الجمعيات اللي ساترة الشعب المصري.. على تمييلة الصاحب على صاحبه في ساعة الزنقة.. صباح الخير على التمساحية أسيوط وناسها اللي مقضيينها.. صباح الخير على أم حمدي عبد الرحيم اللي بتحب جمال عبد الناصر وأم أيمن عبد الهادي اللي بتعمل رز مسكر وملوخية تضيّع مستقبلك وأم علي رجب اللي ماشافتش البحر إلا في عربية الإسعاف اللي خدتها على المستشفى.. صباح الخير على كل نجع وكفر بيحاول مايكفرش من العيشة.. صباح الخير على الكنايس اللي شكلها حلو.. على الأتوبيس

النهري لما يكون نضيف.. على عم فاروق ونصبة الشاي بتاعة كوبري عباس.. على عربية عم جمعة بتاعة حمص الشام.. على كل زوجة مابتنكدش على جوزها، وكل راجل مابيستقواش على ولية، وعلى كل ندهة لبابا، وكل لعبة لبنوتة ومسدس مية لحمادة.. صباح الخير على كراتين الجهاز المتعانة فوق الدواليب.. وأحلام الجواز المتحاشة تحت البطاطين.. صباح الخير على عامود السواري والفاتحة اللي باقراها وأنا بابص من تحتيه على طربة ستي اللي قالت لي وأنا رايح الجامعة أول مرة: «يا ابني البلد بلدهم يعملوا ما بدا لهم».. صباح الخير على لمّة صحابي على القهوة وشتايمهم فيّا عشان بطلت آجي.. صباح الخير على دعوة ربنا يكفيك شر طريقك.. صباح الخير على عبد الناصر قبل ما يبقى فرعون، وعلى الشعراوي وهو بيقول إذا كنتَ قدرنا فليُعنّا الله عليك، وعلى عبد الحليم وهو بيعيد كوبليه حبيبي والله لسه حبيبي والله، وعلى أم كلثوم وهي بتقول تهون عليّا الروح لو فارقت جنبي، وعلى محمد فوزي وهو بيقول أي حاجة يعوزها.. صباح الخير على مرجلة إبراهيم عيسى الذي أخرجني من الظلمات إلى النور.. على مسلسل أرابيسك، وفيلم حب في الزنزانة، وفينالة الكيت كات، ونجيب الريحاني وهو بيغني حتى الفيران اشتكت من قلة فرافيتي.. على عمّ حجازي اللي سابها لنا مخضرة وراح طنطا.. على محمود عوض اللي قاعد في البيت.. على بهاء طاهر اللي بيصلب طوله عشان يروح المظاهرة.. على فاروق عبد القادر وصُحبته.. على حمدي عبد الرحيم، وأكرم القصاص، وقهوة المنظر الجميل والأيام اللي كنا مش لاقيين ناكل فيها بس كان عندنا شاي وسكر كتير.. صباح الخير على مراتي بنت الأصول اللي مابتخافش

من أي حاجة باكتبها.. صباح الخير على بنتي اللي لو ماشفتهاش بتكبر نفسي تقولولها إن أبوها كان راجل جدع. صباحِك زي وِشّك يا مصر.. جميل وحزين. على هذه الأرض مايستحق الحياة وعليها لصوص ظلمة يستحقون الموت.

## يبدو حميدًا

### (١)

الحمد لله. خرجت أمي بالسلامة من المستشفى.

أنا من قوم لا يقولون لأمهاتهم: «يا ماما». أُحب أن أناديها «يا أمي»، ليس هناك أسباب لذلك تتعلق بالحفاظ على اللغة العربية، ولكن لأنني أشعر أن أمي لا تليق عليها كلمة «يا امّه»، وأنا لا تليق عليّ كلمة «يا ماما»، هي أيضًا أصغر من أن أعتمد لقب «حاجّة» مع أن ذلك يسعدها جدًّا فهي «حاجّة من زمان»؛ على حد تعبيرها الذي تباهي به الأمم، بالطبع لسنا أبطالًا في مسلسل تاريخي لكي أناديها يا أمّاه، ولا أبطالًا لدراما صعيدية لكي أناديها يا أمّاي، كما أنها تغضب مني عندما أقول لها حين تكاد تدفعني إلى الجنون: «يا ست إنتي»، لذلك كله أناديها دائمًا يا أمي، ومع ذلك أغضب من كل مَن تزل لسانه فيسألني: «أخبار صحة أمك إيه؟»، ليس لديّ تفسير منطقي لذلك التناقض، لكن ليس هذا مهمًّا الآن، فالمهم أن أمي خرجت بالسلامة من المستشفى.

أحمد بك شوقي يقول إن الأم مدرسة، فقط «إذا أعددتها أعددت

شعبًا طيب الأعراق»، وبالأمانة أنا لم أسأل أمي أبدًا عن طبيعة وتفاصيل «فترة الإعداد» التي جعلَتها تُخرج شابًّا طيب الأعراق مثلي، لكنني أميل إلى التعامل مع أمي بوصفها أكاديمية، ليس فقط لأنني لم أحب جميع المدارس التي قضيت فيها فترة العقوبة التعليمية، ولكن لأن أمي أجمل وألطف بكثير من أن تكون مَدرسة، لن يدفعني حبي الجارف لها للمبالغة فأصفها بأنها جامعة، مع أنني تعلمت منها ما لم أتعلمه من أتخن جامعة في مصر، لكن هذا ليس مهمًّا الآن، المهم أن أمي خرجت بالسلامة من المستشفى، بعد أن علمتني كعادتها عددًا لا بأس به من الدروس المستفادة. الدرس الأول (وإن كنت لا تحب سيرة الدروس فيمكن أن تعتبره الأول والأخير): لا تثق أبدًا بكل ما «يبدو حميدًا»، ولا بكل مَن «يبدو حميدًا».

«يبدو حميدًا»، تلك هي الترجمة الحرفية للعبارة التي يبحث عنها الناس بلهفة في نتائج الأشعة والتحاليل. لكن الطبيب البارع كان صادقًا معنا منذ البداية «صحيح أن الأشعة والتحاليل بتقول إن الورم يبدو حميدًا، لكننا لن نعرف ذلك يقينًا إلا قبل العملية بلحظات من خلال ما يُعرف بالفروزن»، لم أفهم كلمة مما قاله لكنني أكرره لها وأنا أهز رأسي بثقة لكي أحاول أن أبدو مُطمئنًا، فتقول لي بثقة مُطْلقة كأنني أنا المريض الذي ينتظر تقرير مصيره «حميد ولَّا مش حميد.. كل اللي يجيبه ربنا كويس.. بس يا ابني ماتخافش أنا حاسّه إنه حميد»، ثم تُذكّرني بمقولة محمود عبد العزيز الخالدة: «صدَّق العليل ولا تصدق التحاليل»، وأنا لكي أهرب من قلقي وجدت ما قالته فرصة سانحة لفتح ملف إيمانها الأزلي بالطب البديل والطب الشعبي والطب النبوي والطب الفرعوني

وكل أنواع الطب التي لا يضطر الإنسان فيها للذهاب إلى طبيب بجد على أساس أنه «ربنا ما يحوجنا للدكاترة يا بنتي»، وهي دعوة «أمهاتية» خالدة ثبت أن الإيمان بها هو الذي يحوجنا حقًّا إلى الدكاترة، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

لا أذكر عدد الساعات التي قضيتها في انتظار أمي بعد أن صعدَت إلى غرفة العمليات، لكني لن أنسى أبدًا أنها كانت ساعات خرائية بكل ما للكلمة من دلالات مقرفة، لن أغالط نفسي لكي أرضيك فأصفها بأنها كانت ساعات كئيبة أو موحشة أو قاتلة، دعني أسأل الله ألا تجربها أبدًا لكي تتأكد من صدق توصيفي، يكفي أن تعرف أنها انتهت بدخول الممرضة وهي تقول بنبرات احترافية: «الدكتور عايزك بسرعة في أوضة العمليات». في لحظات كهذه أنت لا تجري من الرابع إلى السابع بكل ما أوتيت من قوة لكي تجد الطمأنينة، بل لكي تسبق وجدانك الذي تربى على عدم الثقة في أي مستشفى ولو كان فندقيًّا، وأي طبيب ولو كان الأمهر في مجاله، ستحاول فقط تذكّر كل ما حفظته من آيات وأوراد، لتطرد من ذهنك ذلك السؤال: مَن سيصل أولًا إلى غرفة العمليات: أنت أم ذاكرتك الملوثة بمئات الحكايات التي تنتهي بتلك الجملة غير الحميدة التي ينبغي أن يُحاكم أول مَن كتبها في فيلم سينمائي: «عملنا اللي علينا والباقي على الله».

هناك أشياء كثيرة لن أنساها للدكتور وليد عبيد الذي أجرى العملية الجراحية لأمي، أهمها أنه قال لي مباشرة ودون أي تمهيد أو وقفات أو تشديد على مخارج الألفاظ: «للأسف الورم اتضح أنه خبيث ولأنه

طالع من العصب اللي بيحرك القدم هنضطر نستأصل العصب»، ثم يبدو أنه قرأ الرعب الذي احتل وجهي، فتذكر ما قالته له أمي قبل العملية عن عشقها الأزليّ للمشي والحركة، وخوفها من أن تُقعدها العملية فبادرني شارحًا: «ما تقلقش هي هتقدر تمشي عادي جدًّا، صحيح بمساعدة دعامة في الأول، لكن هتمشي عادي، بس للأسف مش هتقدر تحرك القدم لفوق وتحت ولا تحس بباطن القدم، ولازم تاخد بالها من رجلها كويس قوي يعني زي مريض السكر»، وأنا هتفت كأنني ماصدقت: «أنا عندي السكر وعارف»، ولم يكن في الأمر شيء يستدعي الهتاف بكل ذلك الحماس، سوى رغبتي الساذجة في الشعور بالتوحد مع أمي في معاناتها القادمة.

«طيب هي بقت كويسة يا دكتور؟»، سألته وأنا لا أعرف أن العملية لم تبدأ بعد، وأن كل ما مضى من وقت كان يتم فيه تحديد طبيعة الورم اللعين لمعرفة هامش الأمان الذي يجب استئصاله معه من الأنسجة، أجابني: «العملية سهلة ومش هتاخد وقت طويل.. بس كان لازم عشان ناخد القرار أبلغك إن الورم مش حميد»، وأنا في تلك اللحظة ودون أن أدري تقمصت شخصية أمي وقلت له: «حميد ولّا مش حميد.. كل اللي يجيبه ربنا كويس». الحمد لله.

(٢)

أمي قالت إفيهًا عاليًا جدًّا قبل أن تصعد إلى غرفة العمليات. كانت قد أخذت حقنة التخدير الأولى لتوّها، نظرت إليّ وهي تغالب النوم

وقالت لي ضاحكة: «أنا خايفة أروح في النوم». وأنا حمدت الله لأنها راحت في النوم سريعًا قبل أن تراني وأنا أبكي.

كنت أحتاج إلى البكاء بشدة، ربما لأنني لم أبكِ منذ أيام، فأنا أُحرَم قسرًا من البكاء طيلة الوقت الذي تُقيم فيه أمي لديّ، لأنني أكون منشغلًا أغلب الوقت بدفعها إلى التوقف عنه، نحن لم نعد نقعد براحتنا كثيرًا زي زمان، وأمي لا تحب أن تبكي أمام أحد غيري، ولأن البكاء في التليفونات محظور طبقًا لاتفاق سابق بيننا «يا أمي أحب أشوفك وانتي بتعيطي قدامي عشان أطّمن عليكي»، لذلك نحاول استثمار الوقت الذي نقضيه سويًّا في تقليب كل المواجع الساكنة أو حديثة التقليب، نظل هكذا أحيانًا لساعات، أمي تبكي وأنا أسخر مما تبكي عليه مهونًا من شأنه لكي أدفعها إلى موضوع آخر يستحق البكاء من أجله، وزوجتي لا تفهم أبدًا كيف تتقبل أمي تعليقاتي الساخرة من كل ما تحكيه أمي من أحزان، في البداية كانت تقول لها بدهشة: «أنا مش فاهمة أنتي ازاي ساكتة له يا طنط»، حتى اضطررت أن أشرح لها أن ما أقوم به وسيلة علاجية لمنح الأحزان نكهة تخفف طحنها لعظام الروح، ومع أنني قلت ذلك بالعربية الفصحى إلا أن زوجتي لم تقتنع، وقررت أن تتعامل مع الأمر بمنهج آخر أكثر منطقية «طيب أسيبكو مع بعض بقى شوية».

عندما قاسوا لأمي الضغط قبل موعد العملية بساعات ووجدوه عاليًا نظرت لها باستغراب، وعندما هربتْ بعينيها بعيدًا عني، تأكدت أن في الأمر سرًّا، انتظرت حتى خرجت الممرضة ثم قلت لها بصوت تعمدت أن يبدو ناشفًا: «هه.. خير إن شاء الله»، وهي نظرت في عيني

مباشرة وقالت بحزم: «دي طريقة تكلم بيها أم داخلة تعمل عملية كمان ساعتين»، وعندما ضحكت من قلبي قالت لي: «عاجباك قوي.. طيب ابقى خلي عبلة كامل تقولها في الفيلم الجاي.. واخرج شوف لي الدكتور وانت ساكت».

فيما بعد وعندما وضعوها على السرير الذي سيصعد بها إلى غرفة العمليات قالت لي بجدية: «وَلَه يا بلال..عايزه أعترف لك بحاجة»، ظننت أن روح الدعابة ستتملكها وتعترف لي بأنها خالتي وليست أمي، وهي لم تتركني أترجم ظني إلى تعليق ساخر، فقالت لي سريعًا بنفس الجدية: «بصراحة الضغط كان عالي.. عشان وإحنا جايين إمبارح من عندك خبيت في الشنطة حتتين جبنة تركي وكام زتونة.. كنت هاتجنن لو ما كلتهمش.. ماحدش عارف إيه اللي ممكن يحصل»، وأنا قررت قمع رغبتها في التصعيد الدرامي فقلت لها: «بالهنا والشفا.. طب ماكنت جبت لك حتتين بسطرمة بالمرة».

دكتور التخدير الذي شاركني في تلقّي الاعتراف توقف عند تفصيلة لم أتوقعها: «جبنة تركي.. أنتي إسكندرانية يا مدام؟»، وأنا شعرت أنه رجل ذوق جدًّا لأنه لم يقل لها ياحاجّة، ثم أضاف: «شايفة آديني عرفت أول سر من حضرتك قبل التخدير»، بصراحة لم أجد أنه من اللطيف أن يمزح أحد مع أمي حتى لو كان طبيب تخدير في عمر والدي، أو ربما لم أسترح لذلك المزاح لأنه لم يكن في عمري أنا، وأمي بدورها ردت ردًّا مباغتًا: «يا دكتور صعب على واحدة خلفت حداشر عيل إنه يكون عندها أي أسرار». ضحكنا

أنا والطبيب والممرضة من أعماق قلوبنا، قبل أن تعاودني الرغبة الملحة في البكاء. أخذ الدكتور البارع الذي يفيض بالإنسانية يشرح لها أهمية أن تحصل على مسكنات بعد إفاقتها من العملية لأن بعض المرضى يقلقون من الحصول على مسكنات ويتخلون عن حقهم في عدم الشعور بالألم، كان يتحدث معها ببراعة كأن العملية تمت ونجحت خلاص، بدا خبيرًا جدًّا في التعامل مع الذين يبدون واثقين وهم ليسوا كذلك، والأهم أنه كان لطيفًا جدًّا لدرجة أنك تحب أن يتم تخديرك على يديه، لا أدري إذا كان يقول تلك الجمل اللطيفة التي يقولها لكل المرضى أم أنه يختار منها حسب طبيعة المريض، لكن لفت انتباهي أن شعره الأبيض وصلعته المهيبة يمنحان كل ما يقوله مصداقية عالية لعلها عجّلت بنوم أمي قبل أن أسألها: هل تبقّى شيء من الزيتون والجبنة التركي؟

ليتها كانت أطول؛ تلك الثواني التي قضيتها متأملًا في وجه أمي الجميل قبل أن يصحبوها إلى غرفة العمليات، لو كانت أطول لربما حققت حلمي الطفولي القديم في عد الحسنات التي تُزين وجهها القمحيّ المشرق، وهو الحلم الذي لم تتعامل معه أبدًا بتقدير لائق، بل كانت تستخف به بعبارات من نوعية «ليه يعني؟ هتعمل لهم جرد؟! إذا كان أبوك ماعملهاش.. أصلك ماشفتش أنت الحسنات دي زمان.. كانوا حَبّ شباب»، قبل أن تختم بالعبارة التي تُشبع بها رغبتها الدائمة في تذكيري بالآخرة: «وبعدين مش دي الحسنات اللي هتنفعنا يوم القيامة يا فالح».

## (٣)

نحن أناس لا نخاف الموت، لكننا نعشق الحياة؛ ولذلك سنضحك كلما استطعنا إلى ذلك سبيلًا. سنضحك لأننا لا نحب المشي، ليس لنا ثقل عليه، والضحك يحرك عضلات الجسم كلها؛ ولذلك سنضحك بدلًا من أن نمشي. سنضحك لأن الضحك هو العلاج الوحيد الذي لا يزال ببلاش. وأخيرًا سنضحك لأننا لحُسن الحظ مرة من نفسنا ننزل في مستشفى «آدمية» يمكن فيها أن تضحك إذا أردت، أو بمعنى أصح إذا استطعت.

والضحك بدأ بعد ساعتين من إفاقة أمي الكاملة من تأثير البنج، لم أُرد أن أخبرها بما قاله لي الطبيب تاركًا تلك المهمة العسيرة لحنكته، هنأتُها على نجاح إزالة الورم، فسألتني: «سجدت لله شكر لأنه طلع حميد؟»، قلت لها: «الحقيقة لأ.. لأني نسيت السجادة في البيت»، وعندما قالت لي: «ده عذر أقبح من ذنب». ثم راحت في النوم، اطمأننت على تماثلها للشفاء، وفرشت ملاية على الأرض وسجدت لله شكرًا. بعد ساعات وعندما أصبح متاحًا لها أن تأكل «حاجة خفيفة»، نظرت باستعلاء إلى الصينية التي كان بها «علبتين» زبادي وطبق جيلي وموزة، طلبتْ مني أن أزيح طبق الجيلي بعيدًا، وعندما استغربت قالت لي: «في حد ياكل جيلي في مستشفى يابني»، ثم طلبت طبقًا فارغًا وعندما سألتها: «ليه»، لم تُعَبِّرني، أحضرت

لها الطبق فأفرغت فيه (علبتين) الزبادي ثم قامت بتقطيع الموزة وهرسها وقلبتها مع الزبادي، وطلبت قالبَيْ سكر وأضافتهما إلى ما سبق واستمرت في التقليب، ثم نظرت إلى الناتج الإجمالي بسعادة، وبدأت تأكل بتلذذ بعد أن قالت: «أهوه كده الواحد يحس إنه مابياكلش أكل عيانين.. ماتجيب موزة عشان أعمل لك طبق».

بعد أن شربتْ الشاي وحمدتْ الله وأثنتْ عليه، دخلنا في الجد، وبدأت تسألني عن العملية أسئلة يحتاج الكذب في الإجابة عنها إلى تركيز شديد كشف لي أنني لست ماهرًا في الكذب كما كنت أظن، حاولت الهروب بأن قلت لها: «على فكرة الدكتور مانعك من الكلام عن العملية إلا لما هو ييجي»، فقالت لي «يا سلام! على أساس إني ماعملتش عمليات قبل كده.. هو أنت مخبي عليا حاجة يا وَلَه»، وأنا ضربت جبهتي بكفي بقوة قائلًا: «ياه كنت هانسى العصر»، وعندما شعرت أن ذلك بالضرورة سيُفهم خطأً قلت لها: «هاخبي عليكي إيه يا أمي.. ماهي رجلك زي الفل أهيه.. حد يصدق إن دي كان فيها ورم طوله عشرة سنتي وعرضه تمانية سنتي.. ده الدكتور مش مصدق إن العملية نجحت أوي كده»، باغتتني بالسؤال: «أنت شفت الورم بعد ماطلعوه؟»، انقبض قلبي وقلت لها: «أعوذ بالله.. الدكتور كان عايز يوريهوني بس أنا مارضيتش.. هي دي حاجة تتشاف»، ازدان وجهها بابتسامة في غير محلها وقالت لي: «أنت عارف أنا حلمت بإيه من شوية.. خير اللهم اجعله خير إن الورم ده زي مايكون تلات حتت سمك متقطعين ومحطوطين في صينية.. هو أنا مش ممكن أشوفه؟ ماتعرفش هم ودّوه فين؟»، حاولت أن أصنع إفيهًا للهروب من تركيب الموقف وعبثيته وقلت لها: «الدكتور خده البيت عشان

يعمله صيادية»، ومع أنها استسخفت الإفيه السخيف فعلًا، إلا أنها قالت لي ساخرة: «ماكانش هيعرف يطبخه زي الصيادية اللي بتعملها أمك.. روح الحق العصر يا خفيف».

بعد الصلاة أصرت على أن أتصل بالطبيب الجليل الدكتور طارق الغزالي حرب لكي أطمئنه أننا «شلنا الورم الحميد»، كان الدكتور طارق جزاه الله عني خير الجزاء هو الذي اكتشف الورم بالصدفة وأدرك خطورته، كانت أمي قد ذهبت إليه بصحبة زوج أختي الذي كان يعاني من آلام في رقبته، لا أدري ما الذي جعلني أستحلفها بالله أن تجعل الدكتور طارق يفحص قدمها اليسرى التي ظلت لأشهر تقول لي في التليفون إنها «تزك» عليها، وكلما سألتها: «والدكتور قال إيه؟» أخذت تحكي لي كل مرة قصة عن عشب جديد أو وصفة خطيرة أو طريقة مدهشة في التدليك، ولولا أن سخَّر الله لنا الدكتور طارق لكان هذا الورم الخبيث قد فتك بقدمها. كلما سألتني: «ماكلمتوش ليه يابني؟! عايزه أشكره» أخذت أراوغها، وعندما جاء موعد فحص مساعد الطبيب لقدمها أخذت تسأله ببراءة تمزق القلب: «بس في حاجة غريبة يا دكتور.. أنا مش حاسة ببطن الرجل خالص.. ومش عارفة أحرك القدم.. هو ده من تأثير البنج ولا أنا فاهمة غلط؟»، نظر الرجل إليّ مستغربًا سؤالها، وأنا نظرت في عينيه نظرة حاولت أن أضع فيها كل ما أملكه من استعطاف وقلت لها: «متهيأ لي الدكتور وليد هو اللي هيقدر يجاوبك عن سؤال زي ده.. مش كده يا دكتور؟»، والشابّ الجميل هز رأسه موافقًا وخرج بعد أن قال لي هامسًا: «بس كده مش صح.. ماتنساش إن الراجل اللي هيجيب لها دعامة القدم زمانه على وصول».

بالتأكيد الذين مروا في التاسعة مساء في ذلك الشارع الجانبي من شوارع المهندسين، لم يفهموا أبدًا معنى أن يروا رجلًا كالشحط يقف في الشارع بالترينج والشبشب، وهو يبكي بكاء من ذلك الذي يستحق عليه الإنسان جملة: «عيب تعمل في نفسك كده». لست من الذين يخجلون من البكاء علنًا، دائمًا كنت أجد بكاء الرجال أمرًا يدعو للفخر، فضلًا عن كونه وسيلة علاجية مضمونة لنزح الأحزان أولًا بأول خارج الروح، لكنها كانت المرة الأولى التي أجرب فيها تعب البكاء المستعجل، والبكاء يحب التمهل، وأفضل البكاء عندي ما يكون بصحبة أمك أو زوجتك أو أعز أصدقائك في جلسات تستمر بالساعات تتخللها ضحكات متقطعة تعطي البكاء نكهة خاصة وتُحرض على المزيد منه، لذلك كله كانت المرة الأولى التي يتعبني فيها البكاء؛ فقط لأنني لا بد أن أبكي على عجل وأصعد لمواجهة أمي بما حدث قبل أن تعرف من الدكتور فتغضب لأنني خدعتها.

عندما استهديت بالله، وأخذت أحكي لها بالتفصيل ما نصحني الطبيب بأن أقوله عن مدى خبث الورم وشراسته، وأنه كان يمكن أن يؤدي إلى بتر القدم، لولا أن الله سلَّم، وقتها كان يصاحبني على شريط الصوت (بلغة السينما) صوت مريض يتأوّه بقوة مقبضة، في ظروف أخرى كان يمكن لصوت آهاته التي تدوي في جنبات الدور أن يضايقني بشدة، لكنني شعرت (وليسامحني الله) أن صوت تأوّهه جاء نجدة من السماء، لكي أربط كل ما قلته لأمي من حقائق صادمة بضرورة أن تحمد الله لأنها على الأقل لا تشعر بمثل ما يشعر به هذا الرجل من آلام مبرحة، وقبل أن أسترسل في سرد كل الحكايات التي لا زلت أحفظها من قراءتي لكتاب «الفرج بعد الشدة» للإمام التنوخي،

قاطعتني أمي وقالت لي: «يابني أنت بتقول إيه.. الحمد لله طبعًا.. أنت ناسي اللي شفناه زمان في معهد الأورام».

وقبل أن تسألني: «يا نهار أسود.. وهو أنتو رحتوا معهد الأورام ليه بس؟»، دعني أقل لك هذه الديباجة الحتمية: كل المستشفيات كئيبة، وإن حسنت خدمتها وغليت أسعارها ونضفت أروقتها. لكن مستشفيات الفقراء في بلادنا ليست كئيبة، بل حقيرة. والكآبة يمكن احتمالها، أما الحقارة فلا يجوز احتمالها. والمستشفى الحقيرة عندي هي التي لا تسمح أحوالها لمرضاها بالضحك والابتسام، وهم يأخذون نفسًا عميقًا ويقولون من قلوبهم: «الحمد لله.. قضا أخف من قضا». هذا ما أشعر بضرورة كتابته الآن وأنا أتذكر ذلك اليوم الذي جلست فيه قبل عشر سنين أو يزيد، إلى جوار أمي في معهد الأورام الذي يظن البعض أنه انهار هذه الأيام، ولو سألوني لقلت لهم إنه كان منهارًا يوم أن دخلته، وأظنه انهار قبل إنشائه، ولاعترفت لهم أنني عندما سمعت خبر إغلاقه بسبب تصدعه، لم أُخفِ سعادتي بالخبر، حتى لو كانت سعادتي في نظر بعض أصدقائي غير مفهومة وغير مبررة وغير إنسانية.

«أحسن.. يا رب ينسفوه ويبنوا مستشفى بضمير». قلتها وأقولها بصوت عالٍ لأحاول أن أطرد من ذاكرتي صور تلك الأروقة السيراميكية الكئيبة التي لا صوت يعلو فيها فوق أصوات تأوّهات المرضى سوى زعيق الممرضات. حيث الكل يبدو متحالفًا بإخلاص من أجل تجسيد أبشع المعاني الممكنة لكلمة الأورام في كل شبر من أروقة المستشفى: تجهم وعصبية وانعدام مهنية وروائح مقبضة وحمامات غير صحية

وجفاء وغلظة وتدين منقوص، حيث تشعر أن هناك شعارًا غير منطوق يسود في المكان«احمدوا ربنا أنكو لاقيتوا سرير أصلًا»، لكنه سيصبح منطوقًا بعلوّ الصوت لو قررت أن تشتكي.

جلست إلى جوار أمي التي ترقد متألمة لأن ممرضة «غاشمة» حملتها بعنف بعد خروجها من غرفة العمليات ورزعتها على السرير ليرتطم موضع إجراء العملية بالسرير فينزف جرحها الذي كان من المفترض أن يكون هينًا وبسيطًا وتسوء حالته لأشهر، كلما تألمتْ أُقبل يديها وأعتذر لأن اليد قصيرة «غصب عني»، وهي تنتزع ابتسامة بالعافية وتحمد الله وهي تميل عليّ قائلة بصوت تحرص على ألا يصل إلى مجاوريها: «كرمه كبير.. مش كفاية إنه ماطلِعش اللي في بالنا»، ثم تحلفني أن أتصل بالفنان الكبير صلاح السعدني لكي تشكره على أنه كان عونًا لنا في إيجاد سبيل إلى دخول المستشفى، كنت أعاني أيامها من البطالة والحرمان العاطفي وانسداد في شرايين الأحلام، وكان عمّ صلاح ملاذي الألذ والأحن في هذه المدينة، أقول لها إنني سأجعله يقدم شكوى رسمية لوزير الصحة في كل مَن يعمل في هذا المستشفى الكئيب من ممرضين وإداريين وعمال، فتقول لي غاضبة: «والله لو عملتها مش هاكلمك تاني.. هم ذنبهم إيه؟! دي تلاقيها ست غلبانة وبتقبض ملاليم.. أنا نصيبي كده يا ابني»، وبينما أحاول كبح جماح رغبتي في لعن كل أحرف كلمة النصيب التي لا تكف عن ترديدها دائمًا وأبدًا، تبدأ هي في سرد حكايات عن زملائها في العنبر لكي تقنعني أننا «أحسن من غيرنا.. على الأقل إحنا مستورين والحمد لله.. أنت عارف اللي هناك ده جاي من بلدهم ومعاه كام؟! إحنا لازم نحمد ربنا إننا لاقينا أصلًا

مكان.. دي فلانة بتقول إن في ناس في بلدهم حالتها أوحش بكتير وماعندهمش أصلًا اللي يخليهم ينزلوا هنا.. والنبي يابني كلم لي الراجل عشان يشكر لنا الدكاترة.. ربنا يقدرهم على خدمة الناس.. الناس ماقصرتش والله».

أقول لها إنني سأحاول أن «ألقط شَبَكة» في البلكونة، وأهرب لكي لا أنفجر في سخط لو تحملته هي فلن يتحمله شركاء العنبر الذين يصعب حالهم على المنافق قبل الكافر، أطل من البلكونة القبيحة على المبنى الذي فاض قبحه على كل ما حوله حتى صار الكون كله قبيحًا بما فيه القاهرة، مع أنها تبدو من بلكونة بيتي الذي لا يبعد كثيرًا مختلفة ومحتملة وأحيانًا ساحرة. بعدها بأشهر دخلت أمي ثانية إلى معهد الأورام لاستكمال العملية، وكان أكثر ما يحزنني أنني حمدت الله في سري أن الظروف لم تسمح بأن أكون معها، لم أفكر حتى في أن أسأل أختي الطبيبة التي لازمتها عن رأيها في المستشفى، كلما جاءت سيرة العملية وما رافقها من مضاعفات أقطم في الكلام وأقول بنبرات غتيتة: «مش عَدّت على خير الحمد لله.. غيروا لنا السيرة بقى». ولعل ذلك ما تقوله لنفسك الآن.

حاضر يا سيدي أنا آسف. سأعمل لي قفلة، بعد أن أقول لك إنك عندما يكتب الله لك فرصة السفر إلى بلاد آدمية تحترم الإنسان، ستكتشف أن المستشفيات التي يسمونها لدينا فاخرة تعتبر عادية جدًّا في تلك البلاد، وأن ما يطلق عليه هناك مستشفيات فاخرة حقًّا وصدقًا لا وجود له أصلًا في بلادنا. مثلًا مستشفى أورام الأطفال الذي لا زلنا نسميه بالجديد والذي نعتبره مفخرة قومية وهو كذلك

بحق، هو القاعدة وليس الاستثناء في أي بلاد تحترم مواطنيها، لكننا لسنا كذلك؛ ولذلك نحن سعيدون جدًّا به وأنا أولكم، مع أنه في رأيي بكل حسناته يجسد أكبر إدانة لحال الصحة في أزهى عصور المرض، ولو كنا مثلما تكاتفنا من أجل جمع التبرعات لبناء هذا الصرح الطبي، تكاتفنا من أجل تحقيق التغيير وإزالة الفاسدين والظلمة والمستبدين من على كراسيّهم، وتوقفنا عن السلبية والجهل والطرمخة والطائفية، لكانت كل مستشفيات مصر آدمية يضحك فيها المرضى الفقراء والأغنياء إن أرادوا لكي يتغلبوا على الألم.

وحتى يحدث ذلك ليس بوسعنا إلا أن نضحك.

## صباح الخير يا جاري

كلما سمعت حِسّ جاري «أبو يحيى» اطمأننت على حال مصر.

كل يوم قبل صلاة الفجر بعشر دقائق تقل قليلًا أو تزيد قليلًا، أسمع صوت باب شقة «أبو يحيى» يُفتح ثم يُغلق بكل ما تيسر من هدوء، لم أسمعه ولو لمرة يذكر الله بصوت عالٍ وهو يستدعي الأسانسير أو وهو يفتحه عند عودته إلى شقته، دائمًا أشعر أنه حريص على عدم إيقاظ أحد أثناء ذهابه إلى المسجد وعودته منه. أبو يحيى بسم الله ما شاء الله يُصلّي الصلوات الخمس في المسجد «حاضر»، ومع ذلك فهو ليس متشددًا ولا متطرفًا، لا تسألني كيف تأكدت من ذلك، فنحن لم تَدُر بيننا أبدًا أي مناقشات فكرية أو دينية، لكنك أصبحت في مصر الآن تستطيع أن تُدرك بسهولة التدين المصري الوسطي الذي يرتقي بأخلاق صاحبه ويزيده تحضرًا وإنسانية، فتميزه عن التدين المتصحر المتجهم الذي يزيد أحيانًا صاحبه انحطاطًا وغلظة.

أسرة «أبو يحيى» من ذلك النوع من الأسر التي تعوّدنا أن نسمع من أهالينا في وصفها تعبير: «ماتسمع لهمش صوت»، لا أذكر أنني

سمعت ضجة تأتي من نواحي شقتهم إلا في المناسبات السعيدة، وللأمانة لا تكون أبدًا ضجة مبالغًا فيها، بل تشعر أنها ضجة محترمة من ذلك النوع الذي يُدخل السرور إلى القلب. لا أعرف إذا كان «أبو يحيى» سيقرأ هذا الكلام، ربما تشجعت للكتابة عنه لأنني أظن أنه لن يقرأه، فأنا لم أره يومًا متلبسًا بوضع صحيفة تحت باطه، ربما كان يقرأ الصحف على الإنترنت، فنحن مشتركان سويًّا في خدمة الـ«دي إس إل»، ومع أنني أنسى منذ أشهر دفع نصيبي من اشتراك الخدمة إلا أنه لا يذكّرني بذلك أبدًا، وكلما تذكرت وذهبت لأدفع وأنا غارق في خجلي، يزيدني غرقًا وهو يقول بأدب من ذلك النوع الذي هو أدب بالفعل وليس تلزيقًا ينتحل صفة الأدب: «خلاص مافيش مشكلة والله».

لم أخذل أبا يحيى فقط في الانتظام في دفع اشتراك الـ«دي إس إل»، بل خذلته أكثر من مرة عندما حاول أن يشركني معه في سعيه لإصلاح بعض شئون العمارة، لكنه في المقابل لم يتوقف عن المبادرة إلى لفت انتباهي لأكثر من مرة إلى مشاكل تتعلق بمواسير شقتي برغم أنها لا تؤثر عليه مباشرة بقدر تأثيرها على مَن هم أسفل مني، وفي كل مرة كان يحرص على أن يُشعرني أنه اكتشف تلك المشكلة بالصدفة.

لم أشعر أن سلبيتي وطناشي وتعللي الدائم بالانشغال عن مساندة «أبو يحيى» قد خيبت أمله فيّ، بقدر ما شعرت بخيبة الأمل تلك عندما اتخانقت يومًا مع أحد الجيران، وتسببت غتاتة الجار في انفجار ماسورة شتائم من فمي، لكنها توقفت عن الانفجار فورًا بعد

نظرة صدمة لمحتها في عينَيْ «أبو يحيى»، لأتحول من شاتم إلى مبرراتي لما صدر عني من شتائم بالفعل، ومنذ ذلك اليوم توقفت عن الخناق مع ذلك الجار، وحتى عندما أفكر أحيانًا في إشعال خناقة عاتية معه، أستعصم بالصبر لأنني لا أريد أن أخيب أمل «أبو يحيى» فيّ مجددًا.

للأسف أصبحت أعاني من مشكلة في تذكّر الأسماء، ولذلك كنت أحيانًا أنسى اسم «أبو يحيى»، مع أنني لم أنسَ كنيته أبدًا، ومع ذلك كلما رأيته أشعر بألفة بالغة تجمعني به أكثر من أصدقاء ورفاق طريق أحفظ أسماءهم الرباعية. سأدهشك أكثر، أنا مثلًا أعرف أن «أبو يحيى» منذ عام وربما أكثر صار على المعاش، لكنني لم أعرف أبدًا أين كان يعمل أبو يحيى، ولا ماذا كان يعمل، فلست من الذين يحبون التطفل على جيرانهم، لكنني أحسب أن أبا يحيى كان رجلًا شريفًا جدًّا طيلة مشواره المهني، وأنه كان قطعًا مخلصًا في عمله، وأنه لم يتلوث بفساد أبدًا، ولم يأكل حرامًا يومًا ما، ولم يظلم أحدًا مطلقًا، ليس لأنه فقط يصلي الفجر في المسجد، بل لأنك لو كنت جارًا له ستعرف ذلك وستكون مثلي متأكدًا من ذلك بعون الله، فالمال الحرام ينضح على كل شيء في البني آدم بدءًا من سحنة وجهه و«تون» صوته، ووصولًا إلى ذوقه في اختيار الزينة التي يضعها أمام باب شقته.

ربما كان أبو يحيى يعرف ما أفعله في الحياة، وربما لا، فهو لم يحدثني أبدًا عن فيلم شاهده لي أو مقالٍ قرأه أو برنامج ظهرت فيه، ولم يفاتحني أبدًا في موضوع بخصوص أي شيء، ولم يفكر في طلب شيء مني، مع أنه لو فعل لخَدمته بعينيّ، لكنني أشعر دائمًا أنه

نموذج للإنسان الذي لو قال لك: «أنا مش عايز حاجة من حد»، فهو يعني ذلك بالفعل، ولن يتبع جملته بقوله: «بس أنت مش أي حد».

ابنتي الصغرى كلما جاءنا ضيف تشير إلى باب الشقة المقابلة وتقول له بفخر شديد: «أنت عارف مين اللي ساكن هنا.. أم يحيى»، فأم يحيى كزوجها تمامًا مقترنان بالخير في وجدان كل مَن يعرفهما: اللسان الطيب، المقابلة الحلوة، والبِشْر الدائم في وجوه الأطفال والكبار، ومفهومهما لواجب الجيران مع بعضهم البعض لم أشهده من قبل إلا في مسلسلات عمنا أسامة أنور عكاشة، أحيانًا لا آخذ بالي أننا «دَخَل علينا موسم»، إلا عندما أجد زوجتي وقد دخلت عليّ بطبق عاشوراء أو كنافة أو بِليلة أو فتة أو كعك لتقول لي بتأثر: «أم يحيى باعتاه وبتقول كل سنة وأنتو طيبين.. أنا مش عارفة أعمل إيه مع الست الجميلة دي»، وبعد أن نأكل بتلذذ من عمايل إيد أم يحيى، نعقد على الفور جلسة مباحثات للتوصل إلى وسيلة حاسمة يمكن لها أن تجعلنا نتغلب على لُطف هذه العائلة وذوقها، وحتى الآن لا زال لدينا أمل في أن ننجح في ذلك قبل دخول الموسم القادم.

في الصيف الماضي لم أحضر زفاف ابنة «أبو يحيى» لأنني كنت مسافرًا، لكنني كنت سعيدًا جدًّا لأن جاري المحترم أدى جزءًا من رسالته في الحياة، قلت له هاتفيًّا إنني أتمنى أن يرزقه الله الصحة والعافية لكي أعزمه على فرح بناتي بقلب جامد، ربما تخيل أنني أجامله، لكنني والله كنت صادقًا فيما تمنيته لأن الفرح سيمثل بالتأكيد فرصة سانحة لكي أسأله ونحن على ترابيزة بعيدة عن الدوشة:

«ألا صحيح يا أبو يحيى حضرتك بتشتغل إيه.. ده لو ماكانش سؤالي يضايقك».

صدقوني، لا يمكن أن تضيع مصر طالما ظل فيها أمثال «أبو يحيى»، لكن هل يتوقف حكامها عن تضييع الملايين من «آباء يحيى» ودفعهم إلى الانقراض؟ هذا هو السؤال الذي يتوقف عليه مستقبل مصر.

## عندما يَحكمُ الخروف

لو أن أحدًا قال لي إنه قرأ هذه الواقعة المدهشة في كتاب تاريخ لما صدقته، لكنني قرأتها بنفسي في كتاب «إغاثة الأمة بكشف الغمة» للمؤرخ المصري العظيم المقريزي؛ ولذلك وحده صدقتها، مع أنني في البداية ظننتني أتوهّم قراءتها بفعل إرهاق الصيام الذي كان يكتنفني وأنا أنتظر قدوم أذان المغرب، لكن التفاصيل بعد أن دققت النظر وأمعنت في القراءة بدتْ لي مقنعة؛ ولذلك صدقتها برغم كونها أعجوبة خارقة، ولكن هل تليق الأعاجيب إلا بمصر أرض المضحكات المبكيات.

يروي المقريزي: «... وفي تلك السنة وقعت بمصر رجة عظيمة اهتزت لها البلاد وانقلب حال العباد، وخرج الخلق إلى حواري المحروسة وشوارعها زَرافات ووحدانًا يلعنون سنسفيل الوالي وذريته وحاشيته الذين طغوا في البلاد فأكثروا فيها الفساد وحق عليهم من الله سوط العذاب، وأخذ الناس يتصايحون بلسانهم العامّي وهم يزحفون نحو قصر الوالي: «شيلوا الوالي وحطوا خروف.. يمكن

يحكم بالمعروف ـ ارحل يعني امشي يمكن ما بيفهمشي»، ودارت بين الناس وجند الوالي مقتلة عظيمة سقط فيها مئات الشهداء وآلاف الجرحى، وكان كلما سقط من الناس شهيد أو جريح كبّروا وهللوا وجأروا إلى الله بالشكوى والدعاء، وزادت حماستهم أكثر حتى إنهم لم يعودوا يطالبون برحيل الوالي عن سدة السلطنة فقط، بل أخذوا يطالبون بالقصاص منه هو وقادته ووضعهم على الخازوق أمام باب زويلة إنفاذًا لشرع الله، وحاصر الخلق قصر الوالي قبل أن يتبين لهم أنه هرب من سرداب أسفل القصر إلى ضيعة بعيدة كان يحب أن يقيم فيها، ولكي لا يقتحم الناسُ قصرَ الوالي خرج إليهم قائد جيشه وقال لهم إنه أجبر الوالي على ترك القصر حقنًا للدماء، وإنه يضع نفسه هو وقادته وجنوده تحت تصرف الناس ويترك لهم حق اختيار حاكمهم كما يروق لهم».

«اجتمع أعيان الناس وعوامّهم في ساحة قصر الوالي وأخذوا يتشاورون فيما بينهم عن اسم الوالي الذي يمكن أن يختاروه لكي يحكمهم، وكان الأعيان كلما طرحوا على الناس اسمًا من فُضلاء المماليك صاح العامة رفضًا له وأخذوا يُذكّر بعضهم بعضا بما ذاقوه من أشباهه قبل ذلك، وكان العامة كلما طرحوا على الأعيان اسمًا من بينهم يشتهر عنه النزاهة ونظافة اليد اتهمه الأعيان بأنه فور جلوسه على كرسي الولاية سيتجبر ويتفرعن ويصبح ألعن من المماليك الذين تولوا الحكم، وبعد أن ضجّ الناس بالشكوى من فرط الجدال والمراء، وشعروا بالقلق من فراغ قصر الولاية من والٍ يحكم البلاد ويشكم من اعوجّ من العباد، قرر أهل المحروسة أن يُحدثوا حدثًا لم يسبقهم إليه أحد من قبل؛ إذ تذكر أحد الذين قادوا الناس إلى

القصر ما كانوا يهتفون به في الشوارع والحواري وهم يزحفون على القصر، وعزموا على أن يُلقنوا سائر المماليك في أرجاء المعمورة ممن يتجبرون على العباد درسًا لن ينسوه؛ إذ ذهبوا إلى حظيرة السلطان، واختاروا من داخلها أكثر الخرفان هزالًا وضآلة، وأحضروه إلى داخل القصر، وقاموا بغسله وتجفيفه ثم ألبسوه رداءً مزركشًا ووضعوا على رأسه تاج الولاية، وكان كلما استقر على رأسه أسقطه، فربطوه إلى رأسه بحبل، ووضعوه على كرسي الولاية، وتنادوا له بالبيعة، وزحف الناس من كل أرجاء المحروسة على قصر الوالي وهم يصيحون: «يمكن يأمر بالمعروف»، وتوافدت وفود من الناس على قاعة الحكم، وأخذ كل مَن دخل يُقبّل رأس الخروف ويبايعه ويدعو له، ثم وقف القاضي الفاضل أمام الناس وقال لهم: «يا أهالي المحروسة لا تحسبوا أنكم جئتم شيئًا إدًّا، فوالله لقد حكمكم مَن يمتلك عقلا أرجح منه، واستبد بأمركم مَن لا يخاف من الله كما يخاف هذا الخروف.. فتوكلوا على الله وتواصوا فيما بينكم بالحق وتواصوا بالصبر.. وعليكم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتراحم والمودة.. لا يبيتن أحدكم شبعانًا وجاره إلى جنبه جائع وهو يعلم.. لا تصبروا على ضَيْم يحيق بكم.. ولا تنصروا ظالمًا على مظلوم.. وتالله لو فعلتم كل ذلك لدعوتم لمولانا الخروف بطول العمر ودوام البقاء».

«ولم يلبث الناس إلا أن اختاروا من بينهم ثلاثة وزراء من صُلحاء الناس وفضلائهم، على ألا ينفرد أحدهم بالوساطة بين عموم الناس وواليهم، بل يقوم الثلاثة مجتمعين بكتابة كل ما تحتاج إليه البلاد من قرارات وأوامر وفرمانات على أوراق خضراء تُوضع في زِنبيل

ثم تُعرض على الوالي أمام نخبة مختارة من الشعب فيمد الوالي رأسه ويلتقط ورقة كما اتفق، فينتزعها الوزراء من فمه، ويقرأونها على الناس فيهللون ويكبرون وهم يشكرون الله الذي أجرى الحق على فم الوالي الخروف الذي ما مد فمه نحو قرار أو فرمان إلا وحمل الخير للناس وأمر بالعدل والإنصاف، بل تعجب الناس أن الوالي الخروف لم يُقدم قرارًا هينًا على قرار عظيم، ولم يختر أبدًا قرارًا يحمل ظلما لبريء أو يجور على حق ضعيف أو يضع مظلومًا في غيابة السجن، وزعم الناس أن معجزة أنزلها الله على البلاد رأفة بحالها وشفقة بشعبها الذي تحمّل من الجور والعسف ما لم تَحْمِله شعوب الأرض قاطبة، وما علم الناس أن الأمر كله لم يكن حكمة تنزلت على الخروف، وإنما كان فيما تحلى به وزراؤه من عدل وعقل وحكمة، جعلهم لا يضعون في الزِّنبيل قرارًا واحدًا يحمل شبهة ظلم أو إجحاف، وأنهم تدارسوا فيما بينهم ما تحتاجه البلاد ووضعوا لكل ما يشكو منه الناس حلًا يرضي غالب الناس وإن أغضب خاصتهم، وتذكروا أن ما أخرج الناس من بيوتهم صوب قصر الوالي هو شيوع الظلم وعموم الفقر، فعزموا ألا يضعوا في الزِّنبيل قرارًا يوقع الظلم على أغلب الناس، وعملوا جاهدين على كتابة فرمانات تخفف فقرهم وعناءهم وإن أغضبت أغنياءهم وسَراتهم؛ ولذلك كان حضرة الوالي الخروف كلما مدّ فمه نحو الزِّنبيل أخرج للناس ما يجعلهم يعتقدون أنه مؤيد من الله بالحكمة، ويجعلهم يفخرون لأنهم هتفوا ذات يوم: «شيلوا الوالي وحطوا خروف.. يمكن يؤمر بالمعروف».

«مااااااء.. مااااااء.. ماااااء»، علت أصوات ثغاء خروف مجلجلة

في مسمعي، فأيقظتني مما تبين أنه غفوة طالت قليلًا في انتظار أذان المغرب، كانت أصوات الخروف الذي احتجزه جارنا في مَنْوَر العمارة منذ الأمس ليذبحه عقب صلاة العيد، نظرت إلى كتاب المقريزي الذي كنت أحمله بين يديّ، فلم أجد سطرًا واحدًا مما توهمته، فانتابني ضحك كالبكاء.

## حديث اللفافة

أنا اللفافة، إذا كنت لا تعرفني فأنت لم تلبسني بعد.

إذا كنت غنيًّا أو مسنودًا فأنت لن تلبسني إطلاقًا، ربما تصافحني كفك بعد أن أنتقل إليها من كف «ديلر» يبيعك ما أحمله بداخلي من مخدرات، وعندها سأنتقل من كفك إلى جيبك أو إلى صندوق سيارتك أو إلى جيب حقيبتك، من ملامح وجهك وماركة سيارتك سأعرف من أول نظرة أنني لن أندس في فمك أو مؤخرتك سواء كان ذلك طواعية أم عنوة، التجارب الطويلة علمتني أن الفقراء وغير المسنودين والغرقى في بحر الحياة هم وحدهم الذين يضعونني في أفواههم ومؤخراتهم طواعية لكي يعبروا بي وبما أحمله من مخدرات من مطارات العالم المتقدم، أو يضعني الضباط والمخبرون والجلادون في أفواههم ومؤخراتهم عنوة في أقسام وسجون وشوارع العالم المتردي.

أنا اللفافة، تحدّث الكثيرون وظللت صامتة، ليس لأنني جماد أخرس لا يتحدث، بل لأنني لو نطقت لما صدق الناس حرفًا مما

أعرفه عن دناءتهم ووضاعتهم وتحجرهم، مغلوبة أنا على أمري، أُستدعى وقت الطلب لأحمل أوزار الناس، ولأصير لعبة يتقاذفها بإتقان ضباط شرطة وخبراء طب شرعي ووكلاء نيابة وصحفيون وساسة ومتفرجون ماتت ضمائرهم، إذا أدى كل واحد من هؤلاء الدورَ المرسوم له عندها فقط أنجح في إحراز الهدف، أما إذا تمرد أحدهم على دوره المرسوم أظل لعبة حائرة لا تستقر على مرمى، بل أحيانًا تنكشف اللعبة لأجد نفسي عرضة لأضواء البحث وأصابع الاتهام ونظرات الشك، وعندها سيتحدث الجميع وسأظل صامتة، محتفظة بسرّي أنوء بحمله، مستقرة داخل كيس بلاستيكي قميء في دولاب أحراز عتيق متمرس في معاشرة الزور، كلما تم إغلاقه أخذَت الأحراز تُحَدِّث أخبارها، فيحكي الحرز الصادق عما رآه من بشاعة، ويلعن الحرز المدسوس من دسه بمهارة، ويعترف الحرز المتلاعب به باسم الأيدي التي امتدت عابثة إليه، هذه رصاصة خارجة من جسد شهيد تسأل نفسها متى يستبدلونها برصاصة أخرى، وتلك شظية تعلم أنها لن تكون كافية لإنصاف جريح أخرجوها من جسده، وتلك ورقة مزوَّرة تعرف أنهم لن يمسكوا أبدًا باليد التي زورتها، وذلك قرص مدمج يعلم أنه سينقرض قبل أن يصلوا إلى حقيقة ما يحمله، وهناك في أرجاء متناثرة من الدولاب تستقر لفافات مليئة بالمخدرات كلهن أرقى مني وأكبر حجمًا وأشد امتلاء وأثقل وزنًا، وكلهن يأنفن مني لأنني إما قادمة من فم حُشِرت به أو مؤخرة دُسِستُ فيها، لكننا جميعا نعلم أننا مُجبرون على أن نظل إلى النهاية صامتين لا نستطيع أن نكشف الحقيقة التي ننوء بحملها، علينا فقط أن نتفرج على مَن سينال جزاء حمله لنا حقًا وعدلًا، ومَن سيحمل أوزارنا ظلمًا وعدوانًا.

أنا اللفافة، أحمد الله وأبتهل إليه لأنه لم يخلقني إنسانًا وأنعم عليّ فجعلني جمادًا لا يحس ولا يشعر، كلما شاهدت ظلم البشر لبعضهم البعض أسخر من نفسي لأنني ظننت أن حياة البشر يمكن أن تكون أكثر إمتاعًا ودفئًا، خدعني ما أراه من ملامح النشوة التي تبدو على وجوههم عندما يفضونني ويتناولون ما أحمله شمًّا أو حرقًا أو حقنًا، خدعتني ضحكاتهم المجلجلة أحيانًا، ومشاعر الرضا التي تنتابهم عقب وليمة طعام ساخنة أو لحظات جنس حميمة أو ساعات دفء عائلي أو مشاعر ندم يجهشون بعدها ببكاء مهيب، كان ذلك قبل أن أكتشف أن كل تلك المشاعر لا قيمة لها إلى جوار لحظة ظلم واحدة أراها تحل بإنسان يهوي تحت أحذية ضاربيه على الأسفلت، أو تتمزق أربطته في غرفة التعذيب، أو ينتفض جسده بفعل كهرباء تصعقه، أو يرتفع رأسه هاربًا من مياه كادت تغرقه ليبحث عن نَفَس يُحيي موات رئتيه، أو يرى مَن يحب أمامه عاريًا أو مُهانًا أو خائفًا. لا، لا أريد أن أكون بَشَرًا، أريد أن أكون كما أنا؛ خامدة جامدة لا تمتلك إرادة ولا روحًا ولا قرارًا، فذلك أكرم بكثير من أن تكون لي إرادة ويسلبوها مني، وأن يكون لي روح ينتهكها كل مَن هو أقوى مني، وأن يكون القرار الوحيد الذي أقدر على اتخاذه هو قرار التخلص من الحياة التي منحها لي الله.

أنا اللفافة، لا زلت أذكر اللحظة الأولى التي دخلت فيها إلى داخل جسد إنسان عنوة بعد أشهر من التنقل بين المطارات والموانئ والتقلب بين أيدي المهربين وضباط البوليس والتجار والموزعين، قبلها كنت أجلس في دولاب داخل قسم شرطة لأشهر دون أن أفعل شيئًا مفيدًا، أتفرج على الداخلين إليه والخارجين منه وأستمع إلى

حكايات تغري بمخاصمة الجمود، وتُحرّض على الصراخ في وجوه البشر قرفًا وحنقًا، أخرجني الضابط الذي كنت من نصيبه من الدولاب وأعطاني لمخبرَيْن كان يتبادل معهما نكاتًا بذيئة لم أسمع مثيلًا لسفالتها منذ أن لُفِفت وأصبحت لافّة ودايرة، استقررت في جيب أحدهما، وعندما خرجت من ذلك الجيب العفن وجدت أمامي وجهًا جميلًا لشاب بهيّ الطلعة يمسك المخبران بفمه ويفتحانه عنوة ويقومان بحشري داخله عنوة، سيطاردني وجه ذلك الشابّ إلى أن أفنى تمامًا وأترك هذه الدنيا البائسة، كان وجهه الصبوح مليئًا بأمارات التحدي والشجاعة، لكنني رأيت الخوف يسكن في عينيه، وإلى جوار الخوف رأيت في عينيه صورًا مدهشة تتسابق على المثول في ذاكرته، رأيته يُقبّل رأس سيدة محجبة جميلة، رأيته يحتضن جيتارًا ويغني، رأيته يتغزل في فتاة فاتنة، رأيته يمسك مصحفًا ويقرأ بصوت جميل، رأيته على مائدة العشاء مع فتاة تشبهه وأسرة تحبه، رأيت وجوه قاتليه تطرد كل هذه الصور من حدقتَيْ عينيه وتكسوهما بسواد يزداد حلكة كلما أجبروني على أن أدخل أكثر إلى أعماق فمه الذي ضاق بي وحاول مرارًا لفظي خارجه قبل أن يتوقف عن المحاولة فأُدرك ما تسببت فيه، وأستقر داخل فمه صامتة حزينة، أتناقل من يد إلى يد وأخرج من دولاب إلى آخر، وأسمع كذبًا كثيرًا يقسم قائلوه عليه بالمصحف الشريف، قبل أن أرى صورة الشاب الذي وضعوني في فمه وهي تكسو جدران الشوارع التي أعبر بها من مبنى إلى مبنى بين حين وآخر، وعندما استبشرت خيرًا لأنهم أخرجوني أخيرًا من الدولاب لكي يعرفوا الحقيقة، حاولت أن أساعدهم وأصرخ بها لكنني فشلت، وكانت هذه المرة الأولى التي

أندم لأنني خلقت جمادًا، قبل أن تمر أشهر لأعرف الحكم الذي صدر بحق مَن وضعوني في فم الشابّ، فأرضى بصمت أبدي يليق بكل ما عايشته من قُبح.

اليوم وأنا مستقرة في هذا الدولاب الكئيب، أنتظر مصيري النهائي، وجدت لفافة أخرى صغيرة الحجم تدخل إلى الدولاب صامتة حزينة، يقولون هنا إنها جاءت من داخل جسد شاب فقير قتلوه بأحد السجون، كلما سألها أحد من أين أتت تُجهش بالبكاء وترتجف ربما من هول ما رأته، أنظر إليها حزينة لأنها ستخوض نفس الرحلة التي خضتها، قبل أن تستقر في نهاية المطاف مثلي محبطة عاجزة خامدة، تقول لنفسها هذه العبارات الساخرة المريرة التي أقولها لنفسي منذ أن صدر الحكم الأخير: «أنا اللفافة، أنا الحل السحريّ، أنا المبرر، أنا العذر، أنا الحجة، أنا الخلاص، أنا المهرب، أنا المخرج، أنا سبيل الظالمين إلى النجاة، متى ستلبسني؟».

## كنت بلطجيًّا

فليتغمدنا الله برحمته ويَتُبْ علينا من كل وغد متحاذق لا تدري من منحه حق تصنيف الناس إلى ثوار وبلطجية طبقًا لملامح وجوههم وألوان ملابسهم ودرجة كثافة «الجِيلّ» الذي «يُليطون» به شعورهم. نعم، أنا أعني ما أقوله حرفيًّا، الذي يصف إنسانًا بأنه بلطجي لأن طريقته في الكلام لا تحلو له ولأنه لا يوافق صورته المتخيلة عن شباب الثورة ليس سوى وغد، وهذه هي أقل الشتائم التي يمكن استخدامها بحقه، لأن الأوغاد هم الذين يظنون أن تصنيف الناس حق مكتسب، حتى لو ادعى بعضهم أنه يَفعل ذلك لأنه خائف على الثورة اللي بتتسرق، أو لأنه يظن أن الرائحة الطبقية الحقيرة التي تنبعث منه يمكن أن تختفي إذا علا صوته بالنواح «بقى هم دول شباب الثورة.. راح فين شباب الثورة الجميل اللي كنا فخورين بيه من ساعة ماشفناهم يوم خمسة وعشرين».

أولًا أنت لست وغدًا فحسب، بل أنت كذاب أيضًا، أنا آسف لأن الانفعال جعلني أفقد تركيزي، إذا كنت وغدًا فأنت بالضرورة كذاب، هذا جزء من مستلزمات كونك وغدًا، أنت لم تكن فخورًا بأحد يوم

خمسة وعشرين يناير، بل في أغلب الأحوال كنت تسبّ وتلعن فيهم وتتهمهم بأنهم شوية عيال هياخدوا على قفاهم وهيروحوا، وبالتأكيد فإن مناظر سحلهم وضربهم بالهراوات وخنقهم بالغاز المسيل للدموع لم تحرك في قفاك الغليظ شعرة، وإلا لكنت قد نزلت إلى الشارع يوم ٢٨ من يناير، وعندها كنت ستَمْثُل في حضرة أحرار المصريين من كل الطبقات الذين خرجوا يحلمون بإسقاط النظام وظلوا يطاردون حلمهم في الشوارع والميادين حتى أسقطوه، لن أتحدث عما لم أشاهده في الإسكندرية والسويس والمحلة والصعيد وطنطا وكرداسة والزاوية الحمراء ومدينة نصر والإسماعيلية، سأتحدث عن عشرات الآلاف الذين رأيتهم يتدفقون إلى ميدان الجلاء من نواحي إمبابة وبولاق الدكرور والعمرانية وفيصل والهرم ليُسقطوا مبارك في التحرير، صدقني لو كنت قد شاهدتَ بطولاتهم وعِشت تضحياتهم، لم تكن ستنطق على لسانك عندها تلك الكلمات الرخيصة عن الشباب المستريح اللي ركن عربيته ونزل يثور وما إلى ذلك من هراء.

بلاش يا سيدي، لو أنك قمت بتثبيت أي صورة في أي فيديو كليب للثورة على اليوتيوب، ونظرت في وجوه الموجودين أمامك على الشاشة لعرفت أن كل ما يتم ترديده عن تغير مناظر شباب الثورة ليس سوى محض هراء، وأزعم أن بعضه يصدر عن نفوس حاقدة على أبناء البسطاء الذين لم يسقط النظام إلا بفضل تضحياتهم، انظر إلى الصور كلها وستجد أمامك وجوه بسطاء المصريين تطالعك بكل ما فعله بها سوء التغذية والتلوث والإرهاق والإحباط وغياب العدل، لكنك ستندهش لأنك ستراها برغم كل ذلك «تِوِجّ» بالحياة والبهجة والغضب والدهاء والجدعنة والرغبة في الانتصار السريع لكي يعود

كلٌّ إلى بيته ليأخذ دُشًّا طويلًا من ذلك النوع الذي يستوجب عبارة «بقى كل ده في الحمام».

في كتابه البديع «الطريق إلى رصيف ويغان» يلاحظ الروائي البريطاني المُلهَم جورج أورويل أنه دائمًا في أوقات الشدة وعلى رأسها أوقات الثورات يجيء المثقفون والمتعلمون وحدهم إلى الواجهة «هم ليسوا موهوبين أكثر من غيرهم كما أن تعليمهم في حد ذاته غير ذي نفع على الإطلاق، لكنهم معتادون عمومًا على مقدار معين من الاحترام، وبالتالي لديهم الجرأة الضرورية التي يتطلبها موقع القائد، ولذلك يبدو أن مجيأهم للواجهة مُسلّم به في كل زمان ومكان»، ثم يحكي عن مشهد يَرِد في كتاب يوثق قمع أحداث كوميونة باريس أول ثورة اشتراكية في العصر الحديث، قررت السلطات إعدام زعماء الكميونة بالرصاص، ولأنها لا تعرف مَن هم الزعماء فقد كانوا يختارونهم على أساس أن أبناء الطبقة الأفضل هم الزعماء بالتأكيد «يمشي ضابط بين صفّ من السجناء وينتقي النماذج المحتملة طبقًا لمظهرها، أُعدِم أحد الرجال لأنه كان يرتدي ساعة يد، وآخر لأن له وجهًا ذكيًّا».

نحن لسنا بريطانيا ولا فرنسا؛ ولذلك نحن نعدم الناس معنويًّا بناء على منظور طبقي عكسي، فالذين تبدو على وجوههم آثار العز وتبدو بشرتهم مرتاحة من فرط الحموم ولا تظهر آثار الأنواع الرديئة من الكريمات على شعرهم ويستطيعون أن يقولوا كلمات من نوعية الحراك السياسي والمسار الديمقراطي والتحديات الراهنة، هم بالتأكيد شباب الثورة الذين يستحقون الاعتراف

والتقدير، أما الباقون فهم بلطجية ويستحقون التجريس والشتيمة والصعق الكهربائي والاقتياد إلى النيابة العسكرية إلى أن يبان لهم أصحاب.

**أقول لنفسي**: جميل أن الثورة لم تقم في أيام الجامعة التي كنت أقيم فيها بغرفة فوق السطوح ليس بها حَمّام، وكان الأمر يتطلب أيامًا لكي أجد سبيلًا إلى حمام ساخن في بيت صديق، بالتأكيد كان سيُلقى القبض عليّ من أول مظاهرة، وكنت ستجدني على غلاف «أخبار الفلول» كعيّنة دالة للأشكال البلطجية الضارة بالوطن، هذه فرصة سانحة لكي أوجه شكرًا تاريخيًّا إلى كل زملائي في كلية الإعلام الذين تحمّلوا رائحتي أيامها، بعضهم بكرم أخلاق ومحبة، وبعضهم ربما لاحتياجه إلى ما كنت أكتبه من ملخصات، تحملوا أيضًا القمصان العجيبة التي كنت أرتديها والتي كنت أشتري أقمشتها من بائع أقمشة في شارع الصناديلي بالجيزة وأفصلها لدى ابن عمته الترزي، كنت أتخيل أن تلك القمصان ستُحدث تأثيرًا عاطفيًّا فتاكًا على العناصر النسائية المستهدفة، وعندما عرفت الحقيقة لم أغضب لأن «دي خِلقة ربنا»، لم يكن لديّ ذوق في اختيار الملابس، وأعتقد أنني لم أمتلكه بعد ولا أرغب في امتلاكه، ولا أعتقد أن ذلك الذوق الذي كنت أرى الكثيرين من حولي ينفقون وقتًا طويلًا في الحديث عنه والتفاخر به قد أضرني وأفادهم في حياتهم.

**بصراحة**، لا يجب أن يخجل الإنسان من فساد ذوقه، بل يجب أن يخجل من انعدام ضميره، ومن قدرته على أن ينسى دائمًا أنه كمخلوق ضعيف أحقر من أن يُصدر حكمًا شكليًّا على أناس لم يَحظوا بالفُرص

التي نالها في حياته؛ لذلك.. ولذلك كله إذا وجدتَ شخصًا يشير إلى مواطن فقير يتظاهر في التحرير، ويسألك باشمئناط: «بقى بالذمة ده من شباب الثورة؟»، لا تدخل معه في نقاش، بل قل له من الآخر: «ده سيدك وتاج راسك يا وغد».

# سِت الحاجّة مصر

كلهم كانوا ينادونها: «يا ست الحاجّة».

أبناؤها وأبناء إخوتها وأحفادها وجيرانها، حتى إخوتها كانوا ينادونها: «يا ست الحاجّة».

ليس لأنها كانت أكبر سيدات العائلة، بل لأنها كانت الأكبر مقامًا والأكثر هيبة وطيبة وحنانًا، سيدة من اللواتي توقف خط إنتاجهن منذ سنوات طويلة، تلك السيدات المستحيلات اللواتي استطعن بمفردهن إنجاب وتربية وتعليم وتأهيل واحتضان جدعان وجمالات وبهوات وهوانم عقبال أمالتك دون شكوى أو تذمر أو محكمة أسرة أو كوافير أو خروجات.

كانت ست الحاجّة نموذجًا مشرفًا وذهبيًّا للأم المصرية التي تطبخ وتكنس وتربّي وتكبّر وتسبّح وترتق الخروق مهما اتسعت على الراقع وتمسح الشقة وأحزان مَن في الشقة وتدلع وتقسى وتهاتي وتدادي وتراعي وتداوي وتزفّ العريس تلو العريس والناجح تلو الناجح،

تُخرج أبناءها إلى بيوتهم سعداء هانئين وتقفل بابها على نفسها سائلة الله الصحة والستر وحُسن الختام.

كل هذا كانت تفعله دون أن تطلب شيئًا من أحد، لم يخرج من تحت يديها إرهابي أو خمورجي أو برشامجي أو عاطل أو منحرف أو فاشل أو ممرور، بل أخرجت لمصر أبناء وبنات زي الفل دون أن تطلب من حُكام مصر معروفًا أو جزاء أو شكورًا، بالطبع هم لم يعرضوا عليها شيئًا فرفضته، هم ليسوا مهتمين بها أصلًا، فهم مشغولون ببيع مصر في المزاد ليس لمَن يدفع ثمنًا أكثر، بل لمَن يدفع عمولة أكبر حتى لو دفع ثمنًا أقل، هم مشغولون بتأمين مستقبل أبنائهم وأحفادهم والحرص على ألا تُفتح ملفات فسادهم واستبدادهم ومظالمهم يومًا ما، كيف إذن لست الحاجّة أن تكون همًّا لديهم وسط كل هذه الهموم الجِسام التي تشغلهم.

هل كانت ست الحاجّة تريد الكثير؟ لا والذي خلق الخلق، هل كانت تريد ميدالية أو تكريمًا أو شهادة تقدير من المحافظة أو مصافحة حانية من السيد الرئيس الأب أو حتى ظهورًا تلفزيونيًّا مع طارق علام؟ لا والله، لم تكن تريد شيئًا من كل هذا، هل كانت تريد أن تعالَج على نفقة الدولة؟ لا ورب العزة فأبناؤها الذين أكرمها الله فيهم مستورون ولا يريدون من هذه الدولة سوى أن تكفيهم شرها وفسادها وظلمها. ست الحاجّة كانت تريد فقط أن تُعامَل كإنسانة. كانت تريد من مصر أن تحفظ لها كرامتها في كبرها ومرضها وعجزها، كانت تريد سريرًا في مستشفى محترم بفلوسها والله وليس تفضلًا أو عطفًا من أحد، ست الحاجّة كانت تريد أن تمسح مصر قليلًا على

رأسها، خاصة أنها لم تسمع كلمة حلوة من مصر طيلة عمرها، ولم تر منها أبيض بينما رأت هي وأبناؤها أسود كثيرًا.

صبرت ست الحاجّة كثيرًا على بلاوي الدهر شأنها شأن كل أم صابرة في هذا البلد المبتلى بالحرامية، شافت أهوالًا وأشكالًا وألوانًا وخلقًا ما يعلم بيها إلا ربنا، وتحملت كثيرًا، لكن الحمل زاد في هذه الأيام الغبراء فأصابتها جلطة في المخ، سارع أبناؤها إلى نجدتها سائلين الله أن يلطف بها ويبقيها لهم، تفاءلوا بما سمعوه عن الفكر الجديد الذي أتى بوزير صحة سيجعل من مستشفيات مصر الحكومية قلاعًا للطب وواحات للشفاء، فكروا في الذهاب إلى أفخم مكان تدّعي الحكومة أنها توفره لمواطنيها؛ القصر العيني الفرنساوي الذي لطالما صدعهم الإعلام الرائد سابقًا الشفاف حاليًا بكونه مفخرة صحية لحكم البنية الأساسية المباركة، هرعوا إليه وآمالُهم في شفائها تسبقهم، وكلهم استعداد لأن يدفعوا كل ما يتطلبه العلاج من تكاليف، ولو كانوا يعلمون ما سيحدث لهم هناك لما ذهبوا، تخلُّف إداري وطبي لا مثيل له، دكتور يقول لهم إن ست الحاجّة تريد أشعة مقطعية، وآخر يقول لهم مَن الذي قال لكم هذا؟ لا تحتاج أشعة مقطعية أبدًا، إداري يقول لهم ليس هناك سرير خالٍ لها، وإداري آخر يوحي لهم أن المسألة تحتاج إلى وساطة، وثالث يشخط ورابع ينطر، كل هذا وست الحاجّة ترقد مشلولة عاجزة عن الحركة على سريرها ذاهلة عمن حولها، دون أن تنتظر الخوانة من مصر التي أعطتها نور عينها، أبناء زي الفل يتحلقون حولها لا يملكون دفعًا ولا صرفًا مع أنهم لو طلب منهم أن يدفعوا ويصرفوا الفعلوا، لكنهم وقعوا أسرى وحوش يتعاملون مع البشر على أنهم حالات، ذهبوا يستنجدون بأطباء فوجدوا موظفين يختفون مع حلول الثانية ظهرًا، لا

يمكنك الإمساك بأحدهم إن أردت، فهناك دائمًا حجج غياب وأعذار اختفاء، كل ما عليك أن تصبر وتضع نفسك تحت رحمة رغباتهم وأمزجتهم، إن علا صوتك بعد أن نفد صبر أيوب وجدت مَن يتهمك بالهمجية والتخلف ويلفت انتباهك إلى أنك «عيب في مستشفى»، وإن ذهبت تبحث عن متخذ قرار ينتشلك من ورطتك لم تجد أحدًا يعطيك «عُقّادًا» نافعًا، أنت هنا في أحطّ نموذج لِما صارت إليه مصر على يد الحزب الوطني المبارك، أنت الآن في قلب المزبلة التي ظلت تستقبل النفايات والقاذورات طيلة أزهى عصور الإنجازات، أنت الآن تشاهد أبناء شعبك وهم يقهرون بعضهم البعض، تشاهد الناس وهم يسيرون من حولك صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية، المفروض أن الناس هنا أفضل ألف مرة من مستشفيات الفقراء، فهم على الأقل يمتلكون ثمن العلاج، يستطيعون أن يسلكوا أمورهم ويشتروا للمستشفى ما ليس به من معدات أو أدوية، احمد ربنا أنك لم تضطر لدخول الشر بره وبعيد أم المصريين أو إمبابة العام أو الزقازيق العام أو بني سويف العام أو غيرها من السلخانات البشرية التي يمتلك الفقير المضطر لدخولها من الواقعية ما يجعله يسأل الله عزوجل ألا يُعجّل بشفائه، بل أن يُعجّل له بلقائه ويرحمه من غُلبه، عليك وأنت وسط الرخام الذي صار عنوانًا لهذا العصر السعيد أن ترحم عقلك من الإجابة عن ألف مليون سؤال تتدافع إلى عقلك: «أين هي المشكلة في مصر الآن؟ لماذا يتصرف الناس بكل هذه البلادة والعدوانية والوحشية مع بعضهم البعض وليس مع السلطة التي تستحلّ دماءهم وأموالهم؟ هل نحن مسلمون حقًّا؟ لماذا تمتلئ حوائطنا بلافتات: فداك أبي وأمي يا رسول الله بينما نحن نستحق لعنات الله ورسوله لأننا نطحن بعضنا بعضًا وننهش لحم بعضنا بعضًا

ونستحلّ أموال بعضنا بعضًا؟ هل نحن حقًّا بخير؟ إذا كنت وأنا قادر ومستور أتعرض لهذه المهانة فماذا يفعل الفقير المُعدم إذًا؟ هل يأخذها من قصيرها وينتظر الموت أو يبادر إليه؟ هل أصبحت المشكلة في فساد الرأس أم أن الجسد كله قد فسد؟ هل وهل ولماذا ومتى وإلى أين».

لم يحتمل أبناء ست الحاجّة وأخواتها مرارة هذه الأسئلة فاشتروا أنفسهم وسارعوا بالخروج من مستشفى الحكومة الفاخر المتميز الرائد الفرنساوي العيني التاريخي المبارك، حاملين روحهم الراقدة ألمًا وهمًّا وذهولًا على سرير المرض، وطائرين بها إلى مستشفى أستاذ دكتور شهير كبير عظيم بيطلع في كل البرامج استثماري تخصصي ذي شنة ورنة، وملعون أبو الفلوس، المهم أن يبقيها الله لهم ويُعجّل بشفائها لتضيء لياليهم بابتسامتها حتى وإن كانت ابتسامة هدتها الأيام، الوضع هنا مختلف طبعًا، الابتسامات عريضة والكل يتسابق من أجل المريضة، هذا بفتح غرفة فاخرة وذلك بتوفير إسعافات لازمة ودوكهمّه بفتح ملف في الحسابات والدعاء للمريضة بالشفاء العاجل والتذكير بأسعار المستشفى من باب إن الذكرى تنفع المؤمنين، وما دام العربون حاضرًا والفلوس آخر حاجة تهمّنا، إذن على الجميع أن يطمئن، الحالة مستقرة وزي الفل وإن شاء الله كله تحت السيطرة، ناموا وروّحوا وارتاحوا فأنتم في أيدٍ أمينة، ليس هناك داعٍ لأن تبقوا جميعًا معها فالله معها ونحن معها، حلوا خلافاتكم حول مَن سيبقى في هدوء، وليذهب الباقي للراحة بعد المذلة والمهانة التي وجدتموها في حضن الحكومة الدافئ المبارك، وفي الصباح عليكم أن تسألوا الله الصبر وأنتم تتلقون المكالمة التي ستختبر إيمانكم بالله ورضاكم بقضائه وتسليمكم

بالنصيب الغلاب، وليس على أي منكم أن يعترض أو يسأل ازاي أو ليه أو منين قلتوا إنها كويسة، هل تكفرون بالله لا سمح الله؟ عليكم الآن أن تبادروا بالدفن؛ فإكرام المواطن المصري دفنه، والنهار بيخلص بسرعة في مصر عكس الليل فيها لا ينجلي، لا تفكروا فيما حدث أو لماذا حدث، فكّروا أين ستدفنون وأين ستأخذون العزاء، لا تطلبوا الدكتور المشرف على الحالة ليقدم لكم تفسيرًا علميًّا لما حدث، بل اطلبوا أقرب حانوتي إلى المستشفى وما تيسر من عربيات الأقارب والأصدقاء، لا تسألوا عن السبب، بل اسألوا الله الرحمة والمغفرة وأن يرزقكم موتة تموتون فيها ووشكم منور زي ست الحاجّة ، شوفوا ما شاء الله ازاي وشها منور، كأنها فرحانة أنها تركت البلد لحكامها وزبانيتهم وإعلامهم وصحفييهم وموالسيهم وجلَّاديهم ومماليكهم البحرية والبرية، حد يطول يموت في هذه الأيام المفترجة، ليس مُهمًّا مفترجة لماذا فكل الأيام لدينا مفترجة. ليس على أحد منكم أن يفكر في أن يصرخ من همه وغُلبه ويسأل لماذا يرخص الإنسان في هذه البلاد وقد كرمه الله وفضّله على جميع مَن خلق، ليس على أحد منكم أن يطلب تحقيقًا مع من قصّر وأهمل وفسد وأفسد، فقد جعلنا الله في هذه البلاد أسبابًا في موت بعض وذل بعض وهمّ بعض، دعونا الآن نركز في معركتنا مع الدانمارك ونحفظ جيدًا أرقام منتجاتها التسلسلية، لا تجعلوا شيئًا يلهينا عن حربنا ضد أعداء رسولنا الكريم، حتى لو كنا نموت واحدًا تلو الآخر من الفقر والفساد والاستبداد، فنحن نموت نموت لتحيا المقاطعة، لا يفتحن أحد منكم سيرة الضمائر الخربة والذمم الفاسدة والقلوب الميتة، كل شيء بخير، لا تتشاءموا ولا تهنوا ولا تحزنوا فمصر

تشهد روحًا جديدة تجلت في مدرجات الاستاد واللجان الانتخابية ومسرح بني سويف وبرامج التوك شو وندوات الروتاري، ربما خسرنا ست الحاجّة لكن لا زال لدينا عشرات السيدات الفاضلات في المجلس القومي للمرأة والأمومة والطفولة والكهولة والعفونة، صحيح أن ست الحاجّة قد ماتت لكن لا تركزوا على النصف الفارغ من الكوب، انظروا إلى النصف الملآن، لقد تركت ست الحاجّة مكانًا لمريض مصري لكي يموت هو الآخر، وربنا يعطي حكام هذه البلاد الصحة وطولة العمر لكي يقضوا عليكم مواطنًا تلو الآخر ويتكفلوا لكم بحُسن الختام والحياة السرمدية والسلام الأبدي.

آه يا رب يا ذا الجلال والإكرام يا من لا تجوز الشكوى لغيرك، اللهم ارحم ست الحاجّة وأسكنها فسيح جناتك، وألهم أهلها الصبر والسلوان، وأفِض عليها من رحمتك وحنانك ما تنسى به قسوة ظُلّام عبادك، ولا تكتب على ضعيف أو فقير أو مريض أو صاحب حاجة أن يحتاج أبدًا لمن خربت ذممهم وماتت ضمائرهم، وارزقنا جميعًا الصحة والعافية لكي لا نتذل في هذه البلاد التي نسألك أن تلطف بنا فتعجل بشفائها ممن كتبت عليها أن تبتلى بهم، وأن تُحسن ختامها فنحن نحبها ونعلم أنها لن تهون عليك وفيها من يعبدك ويحبك ويخافك، وفيها أولياؤك الصالحون وآل بيت نبيك عليه الصلاة والسلام، أملنا كبير في نزول رحمتك على ست الحاجّة، وعشمنا أكبر في نزول فرجك على ست الحاجّة.. مصر.

## يا مغرقنا.. في خيرك

بلدنا هذه بلد عظيمة.. عندك اعتراض؟

ورئيسها رئيس عظيم.. عندك مانع؟

لا تعرف عظمة البلد وعظمة رئيسها إلا من طريقة تعاملها مع الغارقين من أبنائها؛ لذلك قلت لك بالفُم الملآن إن بلدنا بلد عظيمة ورئيسها رئيس عظيم لأنها قررت أن تُعيد جثامين مئات الغارقين من أبنائها على سواحل المتوسط مجانًا وعلى نفقة الدولة، طبقًا للخبر الذي زفّه إلينا السيد أحمد أبو الغيط ناظر الخارجية.

ياه.. والله كتر ألف خيرك يا مصر، وجزاك الله ألف خير عن كل الغارقين في البر والبحر يا سيادة الرئيس الأب الحنون، نشكرك من قلوبنا الغارقة في حبك مع أننا لم نفاجأ بقرار كهذا أبدًا، فتجاربنا السابقة تؤكد لنا أنك لا تنسى أبناءك الغارقين أبدًا، لكن أنا آسف في السؤال: هل فكرت سيادتك أن تسأل جهازًا مختصًا عن عدد الذين غرقوا في عهد سيادتك المديد؟ هل سألت الصحف الحكومية ووسائل إعلامك الرسمية لماذا لا تنشر عادة أسماءهم في نعي

رسمي باسم رئاسة الجمهورية، ولماذا لا تفكر سيادتك في إقامة نصب تذكاريّ لهم في أحد ميادين القاهرة أو حتى تحت أحد كباريها، ولنسمّه نصب الجندي الغارق المنقول مجانًا إلى بلاده بعد موته؟

بواخة الأسئلة لن تنسينا الاحتفاظ بجميل «الديليفري» المبارك المجاني لجثث الغارقين. ليست المجانية غريبة علينا البتة. بلادنا تموت في المجانية. واسألوا الغارقين عن حياتهم التي كانت كلها مجانية. تعليم خرب بالمجان، طب يداوي الناس وهو عليل بالمجان، كرامة مهدرة بالمجان، وفرص بطالة بالمجان، وأخيرًا موت بالمجان لا يعكر صفوه سوى عدم معرفة الغارقين أن جثثهم ستنقل بالمجان لكي يتخلصوا من شعورهم بالندم لحظة مصارعة أمواج الغرق لأنهم سيتسببون في شحططة أهاليهم.

أغلب الظن أنك لن تستطيع النوم اليوم لو تخيلت نفسك مكان الغارقين، بعد الشر عليك من الغرق، ستتقلب على الجنبين وأنت ترى وجوههم شاخصة ذاهلة تكتسحها الزرقة لتطرد ملامحها القمحية لون ناسك يا مصر. هذا أغلب الظن، لكن المؤكد أن أحدًا من الذين يحكمون هذه البلاد لن يشاركك في أفكارك هذه أبدًا؛ لأنه سيكون مضطرًّا للصحيان مبكرًا ليلحق بجلسات المؤتمر العام للحزب الوطني جدًّا الديمقراطي خالص، والذي ينعقد في أكثر الأماكن أمانًا من الغرق تحت شعار «بلدنا بتتقدم بينا» لمناقشة وثيقة «وعدنا فأوفينا» التي تستعرض ما تم تحقيقه من إنجازات الرئيس مبارك، للأسف حرم الشباب الغارق نفسه من نعمة حضور هذا المؤتمر لعله يدرك كم كان مخطئًا عندما ترك البلد مخضرة بالإنجازات واختار

المجهول، شباب يرى أن بلدنا بتتقدم بينا مارش دير، شباب جاحد صبره قليل ونَفَسه قصير، ولولا أن الرئيس مبارك علّمنا سعة الصدر وطولة البال لقلنا حلال فيه الغرق.

لو كنا نعرف أحدًا نجا من الغرق لسألناه بلهفة: ما الذي يراه الإنسان وهو يصارع قبضة الماء التي تحيط برقبته، لعلنا نعرف ما هي القشة التي صارع الغارقون لكي يتعلقوا بها في لحظاتهم الأخيرة، وأي صورة تكسرت أصابعهم على حوافها حال أن أدركهم الغرق؟

وجوه الحبيبات التي تعدهم وتمنيهم بأن يغرقوا في الهناء والدلع «لما ربنا يكرمك وترجع»؟ أيادي الأمهات التي ترقيهم من شر بلدياتهم الحاسدين قُلالات البخت «ما تقولش لحد إنك مسافر.. الحاجات دي بتتنظر يا كبدي»؟ عيون آبائهم التي تهرب من الالتقاء بأعينهم لكي لا تنهمر شلالات دموع تقل الهيبة وتقلب المواجع وتذكّر بالعجز «كان نفسي أعمل لك حاجة يا ابني بس أنت عارف اللي فيها»؟ همس الأصدقاء في لحظات الحضن الأخير «ابقى ابعت لي لما تضبط أمورك.. ماتستندلش»؟ رائحة الشوارع المرشوشة بالمية التي لعبوا فيها الكرة حفاة؟ عطر رمضان المعظم الذي حمدوا الله أن سفرهم تأخر حتى لا يقضوه بعيدًا عن الأهل والعزوة؟ صوت النقشبندي وهو يغني في الفجر«مولاااي إني ببابك قد بسطت يدي.. من لي ألوذ به إلاااك يا سَنَدِي»؟ متعة إفراغ الشهوة في المنفذ المتاح ـ كف اليد ـ قبل أن يحل الندم وتتوجب التوبة؟ تسابُقهم على أكل حراف صينية البسبوسة الناشفة، وقَمْصِتهم من ظلم تقسيم المناب عند الغداء، ولمتهم على كنب الصالة أمام فيلم

أبيض وأسود مستعينين على إعادته للمرة الألف باللب والسوداني والتريقة؟ فرحتهم برائحة القلية ساعة الضهرية، ورنة المحبوبة على العدة التي انتهت أقساطها، والقميص الجديد قبل ما يوبّر؟ أحلامهم بشغلانة تجيب همها، وليلة حمراء في الحلال، وعيال يطلع حظها أحسن من حظهم؟ صوت شيخ الجامع وهو ينهاهم عن سبّ الدهر ولعن الدنيا؟ كل هذا؟ أم وجه رئيس أرادوا له أن يصير الوطن فعاشوا وغرقوا وهو لا ينفك يطلع عليهم من كل الصور مبتسمًا واثقًا من مستقبل مسيرة الوطن ومُطَمْئنًا محدودي الدخل أنهم لن يفقدوا أبدًا المكان الذي حجزه لهم في قلبه وعقله، وأنهم لن يفقدوا أبدًا فرصتهم الأكيدة في الغرق.. في خيره.

يا ألف خسارة على ولادك يا مصر.

نسألكم الفاتحة؛ لعل الله يثيبنا عليها بالخاتمة.

## مصر تتحدث مع نفسها

يا نهار أبوكم أسود. هو أنا هاصبر كمان ست سنين. لا مش قادرة أبوس إيديكو. مش هاقدر أستحمل. شوفوا لكم صرفة. أنا تعبت خلاص وفاض بيا وملّيت واتمليت مرارة وإحباط وخيبة أمل.. ظللت أربعة وعشرين عامًا محشورة في عنق الزجاجة حتى كاد عنقي ينكسر. زهقت وعودًا وأماني وطفحت أناشيدًا وأغاني. انتظرت الإصلاح فأتاني مصابًا بالكساح. وعدتموني بالتغيير فوقفت أنتظره طويلًا دون جدوى مبللة بدمائي وعرقي ودموعي حتى أخذت بردًا وأخذت على خاطري فأخذت أبكي وأغالب آلامي وأوجاعي.. ولولا أن عناية الله كانت جندي لرحت فيها ورحلت إلى جوار أحبتي بناة الأهرام في سالف الدهر والذين كفوني الكلام عند التحدي قبل أن أبتلى بكم فتكفوني على ملا وشّي.

ما الذي حدث لي على أيديكم؟ وكيف أوصلتموني إلى ما أنا فيه؟ ولماذا كلما رماني رام صار رئيسًا أو وزيرًا؟ وأين راحت عناية الله جندي؟ ولماذا اكتفيتم أيها الخلق جميعًا بالنظر إليّ وأنا أبني

قواعد المجد وحدي، فقعدتم وتركتموني وحيدة أبني وأبني لغاية ما طلعت عيني وتعبت من البناء وحدي وتخذلت سواعدي وسقطت منهكة متعبة، فلا البناء اكتمل، ولا المجد جاوز مرحلة القواعد، ولا أحد منكم يا اللي ماعندكوش دم جميعًا مد يده ليساعدني؟

كنتم تخافون أن يُقدر الإله مماتي فلا يرفع الشرق الرأس بعدي.. وها أنتم أصبحتم لا تخافون إلا أن يُقدر الإله ممات مَن يحكمونني.. لم أمت بحمد الله لكن رأسي لم يعد يرتفع منذ أن خفضتموه في هزائمكم العسكرية والسياسية والكروية والاقتصادية.. بينما رفع الشرق كله رأسه من دلهي إلى كوالالمبور إلى أصفهان.. وأصبح شرقًا ينتج القنبلة النووية وينافس على مواقع الصدارة بين الأمم وأنا لا زلت عالقة بين تحزبّاتكم وأهوائكم، وخوفكم ومدائحكم السلطانية، وخُرافاتكم وموالدكم الدينية والسياسية والفنية، وحسراتكم على الأزمنة الجميلة التي تعرفون كيف تبكون عليها لكنكم لا تعرفون كيف تصنعون مثلها.

هان شأني لديكم فأصبحت ملطشة تنسبونني دائمًا إلى مَن يحكمونني.. مرة تقولون إني مصر ناصر، ومرة مصر السادات، ومرة مصر مبارك، وقريبًا ستقولون إنني مصر جمال. ألا تستحون؟! ألست أكبر من كل هؤلاء يا ظلمة؟ ما الذي فعلتموه بي منذ أن تحررت من ربقة المستعمرين وصرت بعد آلاف السنين من الاحتلال محكومة بأبنائي؟ لماذا جعلتم الترحُّم على أيام المستعمرين على طرف لساني؟ لماذا لم تجعلوني أهنأ باستقلالي يا ناس؟ تاج العلاء الذي كان على رأسي بِعتموه بالرخيص سنة بعد سنة من عهد جمال أبو

خالد وحتى عهد جمال ابن حسني.. ودراته اللواتي كن فرائد عقدي استبدلتموها بدرر فالصو لا تساوي شروي نقير، وحتى الآن أبحث عن فرائد عقدي فلا أجدها.. لوثتم سمائي وأفسدتم هوائي وسرطنتم تربتي وأبدتم زرعي وحكّمتم فيّ شِرار خلق الله.

أصبحت الآن أنظر إلى حالي فأبتئس وأحاول فهمه دون جدوى.. أسأل نفسي دون أن أصل إلى إجابات.. لماذا أصبحت العيشة فيّ غالية هكذا؟ لماذا أتبهدل الآن لكي أجد رغيف عيش نظيفًا ورخيصًا؟ لماذا لا أستطيع أن أشرب كوب ماء نظيفًا وأنا الذي كان يجري بداخلي أطول أنهار العالم.. فصار يجري بداخلي نهران؛ نهر النيل ونهر الخوف؟ ومتى يمكن أن أجد العلاج في مستشفى محترمٍ دون أن أبيع عفش بيتي، أو أصحو من البنج من غير كليتي، أو أصابَ بالإيدز عند نقل الدم؟ لماذا يصبح من حق الحشرات والحيوانات والقوارض في أرضي أن تتزوج وتنجب وتتكاثر وتفرح بخلفتها.. بينما أبنائي من البشر لا يستطيعون ذلك إلا بطلوع الروح؟ لماذا أنتم صامتون على ما يجري لأمكم والجنة تحت أقدامها حتى صِرت أنا والجنة وأنتم تحت أقدام حُكّامكم الذين يقمعونكم فلا تهشون ولا تنشون، بل تتفرغون لقمع بعضكم في دواوين الحكومة وممرات الأتوبيس وطوابير العيش وصالونات الزواج وطبليات الأكل ومجموعات الدروس الخصوصية؟ كثرت مساجدكم وقل مصلوكم.. زاد الحجاب ونقصت العفة.. تنتجون المرض وتستوردون الدواء.. تُسمون العجز مقاومة سلبية، والتخلف بركة، واليأس قناعة، والفشل رضا، والطغيان عزًّا.. تستوردون القمح وتزرعون الفراولة.. تبيعون رغيف العيش على الرصيف والجزمة في الفاترينة.. لم تعودوا متفوقين حتى في

صناعة الغواني والمايصات وفتيات الهِشِّك بِشِّك.. لديكم أفخم ملاعب الجولف وأجلف أنواع الفقر.. جعلتم صُحفكم مراتع للقطط والهوام ومنافي للموهوبين والأحرار.. تفتخرون أن آباءكم أول من اخترع كرة القدم وتنهزمون فيها، مفتخرين أنكم ملوك العالم في الإسكواش الذي صار رياضتكم المفضلة وما ذاك إلا نفاق لحكامكم، بينما ثلاثة أرباعكم لا يلعب سوى الطاولة وبيتغلب فيها.. لذلك لا عجب أن يغني بينكم لاعبو الإسكواش ما دام يحكم فيكم لاعبو الإسكواش. حتى بهجتي بأغاني وأوبريتات المناسبات الوطنية التي كانت تواسي جراحي وتؤنس وحدتي أصبحتم تحرمونني منها فجعلتم حكامكم يزاحمونني فيها، حتى أصبحت وسط كل بيت أطرب له أجد اسم الحاكم محشورًا فيه بدون وجه حق، حتى الأغاني يا ظلمة تستكثرونها عليّ.

والغريب أنكم تفعلون الأفاعيل باسمي وألسنتكم تلهج باسمي.. وأنتم تسرقون خيري تذكرونني.. وأنتم تضربون أبنائي العزل في المظاهرات وتهتكون شرف بناتي في المظاهرات تدّعون أن ذلك باسمي.. ترسلون الفقراء من أبنائي ليموتوا في الحروب باسمي.. ثم تنبطحون أمام العدو على موائد المفاوضات باسمي.. تُودِعون الشرفاء السجون والمعتقلات باسمي.. وتنهزمون في مباريات الكرة أمام بغاث الدول وأنتم تهتفون باسمي.. وتسجدون للحاكم داعين لتأبيده على أنفاسي ونهب ثرواتكم باسمي وتدّعون أن ذلك باسمي.

حسبي الله ونعم الوكيل فيكو مش عارفة أقول لكو إيه. داعية عليكو دعوة أمة كانت قوية ساعة المغربية. ربنا يفك ضيقتي ويقرب

البعيد. بمناسبة البعيد روحوا يا بُعَدا خليكو في الخيبة اللي أنتو فيها. أشوف فيكو يوم تتكلموا فيه مع نفسكو زي ما بهدلتوني وسط الأمم وحكّمتو فيّا اللي يسوا واللي مايسواش. سيبوني في حالي ربنا يوعدني باللي ياخد لي بتاري منكم. وعلى الله أسمع حد فيكو يجيب اسمي على لسانه يا ولاد الـ... جمهورية.

## المصري للمصري كالبنيان.. المهدود

حدث ذلك في الأسبوع الثاني من أحد الرمضانات في شارع جامعة الدول العربية بالمهندسين، كان الشارع قد خلا من زحامه الشهير الذي يلازمه، فلم يعد باقيًا على مدفع الإفطار سوى دقائق، كان مواطن غلبان يعبر الشارع مسرعًا لكي يلحق بالإفطار، فيما ثلاث سيارات فخمة «جراند شيروكي وبي إم دبليو وباسات» تتسابق مع بعضها في شارع برغم أنه من أكبر شوارع القاهرة وأكثرها ازدحامًا ليس به على طوله كوبري مشاة أو نفق مشاة أو حتى عسكري مرور يقوم بتأمين عبور المارة، قام سائق الشيروكي المنشغل بمسابقة أصدقائه بخبط الرجل عابر الطريق، طار المواطن في الهواء وسط ذهول المارة ولم يكد يستقر على الأرض ثانية حتى خبطته السيارة الثانية لتطيح به إلى عرض الشارع ثم تكمل عليه السيارة الثالثة فتطيح به إلى الرصيف، المشكلة ليست في كل هذا، فالحوادث تقع في أي مكان في العالم كما يمكن أن يقول لك أي مسئول في المرور، المشكلة أن السيارات الثلاث لم تتوقف ولو للحظة لكي تسعف الضحية التي اشتركت في دهسها، بل طار سائقوها مسرعين

بعيدًا عن مكان الجريمة تاركين الرجل غارقًا في دمه، والمشكلة أن جميع السيارات التي كانت في المكان بما فيها سيارة محدثي ابتعدت عن مكان الحادث مسرعة دون أن يبادر أحدها إلى إسعاف الضحية، يحدثني الرجل وهو يبكي قائلًا إنه خاف على نفسه من المسئولية فهو يعمل سائقًا ويخشى أن يتورط في شيء يجعل صاحب السيارة يفصله، أو على الأقل يتم تدبيسه في الجريمة خاصة وهو غلبان ليس له ضهر، أخذ ضميره يعذبه فقرر العودة إلى المكان، وعندما عاد وجد رجلًا صالحا قد توقف وأخذ يحمل الرجل إلى سيارته لكي يأخذه إلى المستشفى فقد كان لا زال به الرمق، أخذ فاعل الخير يبكي بحرقة ويصرخ في المارة أن يأتي اثنان منهم معه ليشهدوا معه أنه مجرد مسعف، ويستحلفهم بالله أن يسرعوا قبل أن يموت الرجل، بعد تفكير تشجع اثنان من المارة للذهاب مع الرجل، وسط بكاء جميع المارة وذهولهم وخوفهم ودعائهم أن يكفيهم الله شر الطريق. والمصيبة أن ذلك كله حدث في هذه الأيام المفترجة من شهر رمضان التي يتضاعف فيها ثواب الطاعات وتتضاعف فيها ذنوب المعاصي.

بلاش.. خذ عندك هذه الواقعة التي أرسلت إليَّ بها القارئة داليا حسانين وقد وقعت في مركز أبحاث تابع لوزارة الكهرباء يقع في أحد أطراف العاصمة لن أذكر اسمه منعًا لإيذاء أحد، الواقعة حدثت في يوم العاشر من رمضان؛ يوم النصر يعني، وفيه دخل على مدير المركز عامل ليخبره أنه شاهد جثة ملفوفة بكفن جوار سور المركز، بعد أن تأكد المدير من بعيد أن ما شاهده العامل ليس تخاريف صيام، اتصل برئيسه المباشر في الوزارة وأخبره بما حدث فسأله المدير: هل الجثة جوه المركز أم براه؟ وعندما قال له المدير إنها جوار سور

المركز قال له رئيسه يبقى مالناش دعوة، وأكد عليه جملته الأخيرة، في خلال ثوانٍ انتشر الخبر في أرجاء المركز شاسع المساحة محدود الموظفين، واجتمع المدير بكبار المهندسين الذين نصحوه بإعادة المحاولة، ولكن مع شرطة الكهرباء، وعندما حدث ذلك تكرر السؤال مرة أخرى: بره ولا جوه؟ فتتكرر الإجابة: بره، فيتكرر الرد: مالناش دعوة. وينتهي اليوم الوظيفي القصير رمضانيًّا دون أن يفكر أحد في الذهاب إلى الجثة أو إبلاغ البوليس عنها خوفًا من المسئولية. و المثير للسخرية والأسف أن أتوبيسات المركز بتعدي من جنب السور والمهندسين والسواقين بيبصوا على الجثة المزعومة، دون أن يفكر أحد في أن يقرب منها أو أن ينزل ويشوف مين المتكفن ده.

في اليوم التالي عاد الموظفون إلى أعمالهم وإلى تبادل الأحاديث عن الجثة التي استمرت موجودة في مكانها دون أي تغيير، وبدأت الشائعات والتخمينات، اللي يقول: دي جثة واحدة ست شعرها باين وأكيد كانت ماشية في الحرام، واللي يقول: يا جماعة ماتظلموهاش.. حرام، الله أعلم، واللي يقول: لا ده شكله ولد أو بنت صغيرين لأن حجم الجثة صغير، فيرد عليه آخر: ماجايز متقطعة. وهكذا لم يعد هناك من شغل ولا مشغلة في مركز الأبحاث سوى الجثة ومصيرها، وهنا قرر مدير المركز اتخاذ قرار مصيري لحسم الجدل، ولكي يفوق كل واحد لشغله، فأمر الفني الذي شاهد الجثة وأبلغه عنها بالذهاب إلى أقرب كابينة ميناتل والاتصال بالشرطة وإبلاغها، وبالطبع فعل المدير الحكيم ذلك لكي يجنب المركز أي مسئولية في حالة حدوث البلاغ من تليفوناته، أخذ الجميع يشجعون الفني المسكين على الإبلاغ فذهب مُسلِّمًا أمره لله، وبمجرد أن بدأ تقديم البلاغ وسأله

مندوب الشرطة في التليفون: اسمك وعنوانك، أغلق السماعة فورًا وهات يا فكيك، طيب يقفل السماعة مبلوعة إنما يجري ليه؟ لسه ما دخلش التليفون أبو كاميرا فيديو في مصر. بعد هذه الواقعة قرر المدير الحكيم منعًا للمشاكل غلق باب القضية الى أجل غير مسمى وحتى يأتي الفرج من خارج المركز، وأيده الموظفون في ذلك مكتفين بالدعاء لصاحب الجثة بالرحمة ولأنفسهم بالمغفرة، وأتت إجازة المركز في يومَي الخميس والجمعة، وفي يوم السبت العاشر من رمضان يوم النصر عاد الموظفون إلى المركز، وكانت الجثة لا تزال في مكانها، وكالعادة عادت الهمهمات السلبية والأكف المضروبة ببعضها والأقدام المشلولة عن تبين حقيقة الأمر، وكان يمكن أن يظل الحال هكذا حتى تنتن الجثة أكثر مما أنتنت، وهنا جاء الفرج عندما قرر مهندس شاب في المركز رزقه الله الشجاعة أخيرًا بأن يذهب أولًا إلى الجثة للتأكد من حقيقتها، ثم يقوم بعدها بإبلاغ الشرطة خاصة وأنه يتمتع بميزة ليست لدى عدد من مهندسي المركز وهي أنه مالوش ملف إخوان عند الداخلية، المهم قام في البداية بصلاة استخارة، والله هذا حدث، ثم ذهب وسط تشجيع الموظفين ودعواتهم له بالتوفيق، وهو في طريقه تشجعت مهندسة شابة وقررت الذهاب معه لكي لا يكون لوحده، وودعهما المدير قليل الحيلة، ولم يملك سوى أن يأمر الفني بمصاحبتهما إلى مكان الجثة، وسار الثلاثة نحوها وجميع زملائهم يراقبونهم ويدعون لهم، وعندما اقتربوا من الجثة وأزكمتهم رائحتها أخذوا يُحوقلون ويُبَسمِلون ثم قام المهندس والفني بإزالة الكفن ليكتشفا أن الكفن يغطي.. كلب، (الظاهر أنه عزيز على صاحبه أوي فقرر تغطيته بكفن)، استغرب الموظفون

الضحكات التي انبعثت من زملائهم الواقفين بجوار الجثة، وعندما عاد زملاؤهم استقبلوهم استقبال الأبطال، وبعد إخبار زملائهم لهم بحقيقة الأمر تعالت الضحكات في المركز وسادت الفرحة الجميع لأن ربنا ماحوجهمش للشرطة، وحاول الجميع أن ينسوا أنهم عاشوا كل هذا التوتر والخوف من أجل كلب، لكي لا ينكسفوا من أنفسهم.

الصديقة داليا أتبعت رسالتها ترجوني بألا أعتبر هذه الواقعة أمرًا مثيرًا للسخرية وأخذت تتساءل: كيف نكون مسلمين حقًّا وهذا يحدث في بلادنا ونحن صائمون وفي شهر رمضان المعظم الذي يفترض أن نكون فيه أقرب ما نكون إلى ما أمرنا الله عزوجل بأن نكون كالبنيان المرصوص؟! والحقيقة يا أخت داليا هذه واقعة لا يمكن أبدًا أن تكون مثيرة للضحك، بل هي واقعة في غاية المرارة وتبعث على الأسى البالغ؛ لأن الجبن والتخاذل إذا جاء من أناس بسطاء فقراء جهلة يمكن أن يتم تبريره أو تفهّمه، لكن أن يأتي من أناس متعلمين ومثقفين وليس لديهم ما يخافونه فهي مصيبة تعني أن الإنسان في هذا البلد أصبح أرخص مما نتخيل. بالطبع أنا لا أدين كليةً هؤلاء السادة الموظفين كما لا أدين كليةً أولئك المارة في جامعة الدول العربية، فهم ضحايا خوف تملكهم عبر سنوات من القمع والقهر والظلم، جميعهم سمعوا ألف حكاية وحكاية عن تلفيق القضايا للأبرياء واتهام الناس بالظنة والشبهة، وتلبيس الجرائم لأناس وُجِدوا مصادفة في موقع الحادث، وما واقعة رامي سرّي الذي احتُجز أكثر من ثلاثة أسابيع ظلمًا وعدوانًا وشاركتْ أجهزة الأمن مع وسائل الإعلام في اتهامه بأنه مدبر مأساة حادث المطار، ولولا أن رامي ابن ناس كويسين ومقتدرين لم يتركوا حقه

يضيع هدرًا وفعلوا المستحيل من أجل إثبات براءته لكان الواد يا عيني قد ضاع في الرجلين، تمامًا كما ضاع مستقبل آلاف غيره من الأبرياء لا حول لهم ولا قوة.

لست هنا أن أرسم صورة سائدة لواقع المجتمع المصري، ولست أهيل التراب على مجهودات التكافل الاجتماعي المكثفة التي هي نقطة الضوء الساطعة في لَيْلنا الحالك، والتي أصبحت دليلًا جديدًا على عجز حكومتنا التي تنفق الملايين في غير موضعها بينما تترك الشعب يلم من بعضه لكي يداري فشلها وعجزها. لكن على أي حال لا يمكننا إنكار أن هناك مشكلة حقيقية في تعاملنا كمصريين مع بعضنا، مشكلة يمكن أن تلمسها بدءًا من ركوبك الأتوبيس ومرورًا بطحن الناس لبعضهم في طوابير الحكومة ووصولًا إلى تهرؤ شبكة العلاقات الاجتماعية في الحارات والعمارات بحيث لا تجد مواطنًا في مصر لا يشكو من الساكن فوقه أو تحته، أنا مثلًا أشكو من الساكن الذي فوقي والذي تحتي يشكو مني، ولولا ضيق الوقت لذهبنا إلى الأقسام والمحاكم وخربنا بيوت بعضنا.

لا أريد أن أختم كلامي هنا دون أن أغفل الإشارة إلى ذلك النبأ الصغير الذي رفضت الصحف أن تغطيه عن عمد أو ربما عن إهمال، والذي يكشف سيرنا الحثيث على المنحدر نزولًا إلى القاع، أتحدث هنا عن ما قاله المصابون في حادث المطار من أنهم تعرضوا للتقليب، ومحاولة السرقة داخل سيارات الإسعاف المتجهة بهم للمستشفى، صحيح أن الإسعاف نفى بشدة، لكنني تعلمت ألا أصدق أي نفي رسمي خاصة أن النفي حاول أن يصور ما قاله أهالي المصابين على

أنه إهانة لرجال الإسعاف، وهو أمر لا يتصوره أحد، فلا يمكن أن يؤخذ كل رجال الإسعاف الشرفاء الصالحين بجريرة أحدهم أو حتى بعض منهم، والمسألة ليست خناقة بين أهالي وإسعاف، المسألة أنه لا يوجد دخان من غير نار، ولا يمكن أن يُصدر أحد منكوب في قريبه تهمة كهذه عمال على بطال، طب اشمعنى دلوقتي، ولماذا لم نسمع هذه التهمة من قبل؟! المسألة أخطر من أن نتعامل معها على أنها خبر ننفيه والسلام، المسألة تحتاج إلى دراسة حقيقية لمجموعة من الأحداث والظواهر المفزعة التي تتوالى يومًا بعد يوم لتثبت حقيقة واحدة مفزعة هي أن سياسات الحكومة المباركة طيلة ربع القرن الماضي جعلت المصري للمصري كالبنيان.. المهدود؛ لذا لزم التحذير.

## ما اشتغلش

جمانة ماتت. لن تقرأ لها نعيًا يكلف الشيء الفلاني في صفحة الوفيات، ولن يذهب مندوب من رئاسة الجمهورية إلى أهلها ليقوم بواجب العزاء، ولن تقطع الإذاعة والتلفزيون برامجها حزنًا عليها.

جمانة ماتت قبل أن تدخل شهرها الثامن. ماتت بدري، كما تموت الأحلام في البلاد الواقعية، كما يموت التغيير في البلاد المستقرة أرضًا، كما تموت الإنسانية في البلاد التي تذكر ربنا لكنها لا تعرفه.

عندما قالوا لوالد جمانة وأمها: «البقية في حياتكو.. أنتو استنيتو قوي على البنت.. أصلها كبرت على العملية.. إحنا حاولنا بس بعد ما خلصنا القلب ما اشتغلش». كان عليهما أن ينسيا سريعًا كل أحلامهما بمحلات الألعاب والمدارس القريبة من البيت والضفاير اللي تجنن وديل الحصان ويوم الفرح وابن الحلال الذي يحبها كما يحبان بعضهما، كان عليهما فقط أن يُفكرا في كلمة لم تكن لتخطر لهما على بال.. «مدفن». عاشا يحلمان بها تسعة أشهر، ولما جاءت شاركاها عذابها سبعة أشهر، قبل أن ترحل شاكية إلى الله ظروفًا لا

يعلمها إلا هو وأناسًا لا قلوب لهم ولا ضمائر، وبلادًا ساد عبادها الظلم فما أزالوه بل تظالموا بينهم.

في السادس من نوفمبر ٢٠٠٦ وُلدت جمانة بعيب مركب في القلب كان يستدعي التدخل الجراحي السريع قبل أن تتم شهرها السادس، لكن جمانة لسوء حظها وُلِدت في مصر، حيث يماطل الجرّاحون في إجراء العمليات، وحيث يسود نظام صحي حيواني، وحيث جحيم أبو الريش؛ ولذلك سلّمت جمانة أمرها لله وماتت.

الجرَّاح البارع ابن الناس شخَّص الداء: «ثقب أذيني وثقب بطيني ووصلة شريانية مفتوحة»، ثم شخَّص أُجرة يده: «أنا أجري في الفرنساوي عشرة آلاف جنيه، بس في أبو الريش ماباخدش فلوس»، كادا يُقبّلان يديه، ظناه نبيًّا أو ملاكًا، لكنه أكمل: «عمومًا امشوا في الإجراءات ولو دخلتوا أبو الريش ربنا يسهل»، مشيا في الإجراءات، لكن جمانة تعبت من المشي في طريق جحيم أبو الريش وماتت. الأب يسأل ذاهلًا: «هل يمكن أن تتخيل وجود ملائكة تتعذب في الجحيم، أنا لا أتخيل، أنا رأيت، في يوم واحد أخذ زبانية أبو الريش ٣ عينات دم من صغيرتي بأسلوب وحشي جعل العينة تتجلط في كل مرة بسبب الإهمال». أصوات الزبانية لا زالت تطارده حتى الآن وهي تصرخ في الأمهات المفجوعات بأبنائهن: «قومي يا ولية منك ليها كل واحدة تنضف سريرها.. ما تسكّتي البت وتثبتيها خليني أعرف آخد العينة.. أففف جتك القرف أنتي وبنتك».

ملاك الرحمة الذي فتح لهم طاقة الأمل أسفر عن وجهه القبيح: «أنتو دخلتوا أبو الريش، أنا آسف مش هاقدر أعمل العملية، ده نظام..

وأنا ماباتدخلش في توزيع جدول العمليات»، يتوسل الأب: «طب ممكن نعملها بره»، فينغرس النصل: «طب تعال لي العيادة نتفاهم»، يجري الأب وراء مبادرة التفاهم فلا يجد إلا سرابًا: «البنت حالتها ما تسمحش بإجراء العملية غير في مستشفى أبو الريش.. أنا مسافر ولما أرجع من السفر نحدد معاد العملية»، ينتظرانه حتى يرجع وعندما يرجع ويحدد الموعد يكتشفان أن العمليات متوقفة في المستشفى لمدة شهر ونصف على الأقل بحجة تجديد الرعاية المركّزة مع كلام يتردد في الأروقة عن وجود فيروس كان سببًا في معدل وفيات عالٍ داخل الرعاية المركّزة.. قاتلها الله من رعاية مركزة.

يتوسلان إليه أن ينجدهما، يقترح عملها في الفرنساوي مع طاقم من أبو الريش، قبل أن يبلا ريقهما بأمل الفكرة يباغتهما: «بس أنا مسافر تاني وأول ما أرجع تيجو تاني نحدد المعاد»، هل يجرؤان على الاعتراض فيخرجان من جنة رحمته، حاضر، يعود من السفر فتتوالى هدايا الجرَّاح الكبير لهم: «الطقم اللي أنا عايزه معايا بيمتحن.. استنوا لما يخلصوا»، بس البنت يا دكتور، «يا سيدي مش شرط العملية عند ست شهور بالضبط لو زادوا شوية مش هتفرق كتير»، وما له الصبر جميل، ليس مهمًّا أن نفرح بجمانة كما يفرح كل الأهل، خلينا مقضيينها حضَّانات وأدوية ومحاليل وعينات دم حتى يفضى الطبيب وطاقمه الأثير لنفسه، قبل موعد الطبيب بيوم تأتي الطامّة الكبرى، اتصال من سلخانة أبو الريش للأطفال يخبر الأبوين بوجود لجنة من ١٢ أستاذًا من شتى الجامعات ستقوم بتقييم الحالات والبدء في إجراء العمليات بناء على تعليمات السيد الوزير الجديد أبو فكر جديد.

يجريان على الطبيب يسألانه الرأي فيبشّرهما: «اللجنة دي حاجة عظيمة جدًّا ادخلوا وربنا يسهل.. ماهو مش معقول المستشفى يبطل شغل»، يهرعان مع غيرهما من سكان مصر الأصليين بأطفالهم الرضع ذوي القلوب التي أعطبتها العيشة المرة والوعود المباركة، لكن آمالهم في الشفاء تتبدد ويقال لهم إن ما جرى كان تمثيلية محبوكة حتى لا يصبح قسم جراحة القلب خاليًا في فترة امتحانات طلبة الطب، لا يفهمان شيئًا، فعقلاهما مشغولان بالبحث عن الذنب الذي جنته جمانة لكي تصبح طرفًا في تمثيلية من أي نوع، الجرَّاح الحقّاني يخطب فيهما: «اوعوا تسكتوا على حقكو ده تهريج.. اللي عمل كده لازم يأخذ جزاءه.. تعالوا لي بكره نحدد ميعاد العملية»، بكره يبدو أن الفرج قد أتى فالعملية تحدد موعدها يوم الأحد في الفرنساوي، ملاك الرحمة يأخذ بيديهما إلى مدخل النعيم، أيام جمانة الحلوة ها هي قد شارفت على القدوم، لكن.. «هتدخلوا المستشفى السبت وهنعملها الأحد.. بس نسيت أقول لكم إن المبلغ بقى ١٥ ألف جنيه، ماهو فيه خمسة آلاف زيادة للناس اللي معايا». كله فدا جمانة. يستجري أحد في لحظة كهذه أن يتحدث عن الجشع واستغلال الموقف، وربنا الرحمن الرحيم فتراحموا، وكلنا فداك يا رسول الله، والبنيان المرصوص... وقوم يا مصري... وما شربتش من نيلها.

إيد على إيد تساعد، المهم أن تدخل جمانة غرفة عمليات الفرنساوي في تمام الثانية عشرة ظهرًا بعد أن أخذ الطبيب النطاسي أتعابه مقدمًا، وظل في غرفة العمليات ست ساعات كانت سبعة الأشهر التي سبقتها أهون وأيسر، بعدها يخرج ملاك الرحمة الذي حذرهما مسبقًا من عدم التأخر في إجراء العملية ليخلع الجوانتي

ويخلع معه مسئوليته عن قلب جمانة الذي أنهكته المشارط، لا يذكران إذا كان قد قال لهما: «عملنا اللي علينا والباقي على الله»، كل ما يذكرانه صوته الأجوف المعدني وهو يقول لهما: «البقية في حياتكو.. أنتو استنيتو قوي على البنت.. أصلها كبرت على العملية.. إحنا حاولنا بس بعد ما خلصنا القلب ما اشتغلش». لا تسأل لماذا ما اشتغلش، لا تحاسب أحدًا لأنه ما اشتغلش، لا تلمني لأنه ما اشتغلش، هل ستكفر وتخسر دينك كما خسرت ابنتك. خلاص ما اشتغلش، ربنا يعوض عليك ببنت قلبها يشتغل.

يا حرّ قلبي على الذين ماتوا صغارًا لأن قلبهم ما اشتغلش. جمانة قلبها ما اشتغلش؛ ولذلك.. وفي الثالث من يونيو عام ٢٠٠٧ ماتت وانتهى الموضوع.

عندما زفوا جمانة إلى السماء لم يكن على لسانها سوى سؤال لم تَملّه: «بأي ذنب قُتلت؟»، قالوا لها إنها قتلت بذنب لا يُغتفر؛ أنها وُلدت في وطن لا قيمة فيه للإنسان إذا لم يكن غنيًّا أو مسنودًا، لم تفهم ما قالوه لكنها طلبت منهم أن يبلغوا أباها وأمها السلام والشكر والمحبة وأن يشفعوا عند مُجيب الدعاء لكي يُستجاب دعاؤهما على الظلمة والمفترين وولاد الحرام، وهي ذاتها سألته من قلبها الذي لم يعد عليلًا أن يراها أبوها وأمها حيث هي الآن وملائكة الرحمن يحاوطونها ويعوّضونها عن السبوع الذي لم تفرحه، والسرسوب الذي لم تشربه، والكَوَافيل التي لم تلوثها، والشخاشيخ التي لم تدهشها، والتهويدات التي لم تنم على أنغامها.

يا سادة، جمانة ماتت.. تحيا مصر.

## هل حقًّا نزلتْ عدالة السماء على استاد باليرمو؟

هل ستعتبرني تافهًا لو قلت لك إنني أصبحت أميل إلى أن الكابتن محمود بكر من أهم معوقات النهضة في مصر؟

لا أعني الكابتن محمود بكر كشخص فله كل الاحترام والتقدير، ولكني أعني المنهج الذي يقدمه في التعليق الرياضي والذي هو إن شئت الحق منهج غالبية المصريين في التفكير والتعاطي مع أزمات الحياة، أتحدث عن منطق عدالة السماء التي ننتظر دائمًا أن تنزل على استاد باليرمو، لكنها لا تنزل ولن تنزل طالما نحن نؤمن أن السماء تلعب في صفنا نحن بالذات دون أن يكون هناك سبب وجيه لكي تنحاز السماء لنا دونًا عن باقي خلق الله.

في الأسبوع الماضي كان قد مر أكثر من ستة عشر عامًا على إطلاق الكابتن محمود بكر لقناعته التي شاركه فيها الملايين بحتمية نزول عدالة السماء علينا، وبرغم أن ما نزل يومها كان تعادل السماء وليس عدالتها، فنحن لم نفعل شيئًا يومها سوى أن سجلنا هدفًا عاديًّا من ضربة جزاء، وهو أمر مألوف حتى لمنتخب موزمبيق لذوي

الاحتياجات الخاصة، ثم خرجنا من الدور الأول دون أن نترك خلفنا أي بصمة تُذْكر، ومنذ تلك اللحظة التي ظننا أن عدالة السماء قد اختارت أن تنزل علينا لم نعد إلى كأس العالم ولم نشم ريحته دون أن يفكر أحد منا في أن يسأل لماذا خذلتنا عدالة السماء كل هذا الوقت؟! لكن وبرغم هذا كله بدا واضحًا خلال مباراة الأهلي وفريق إنترناسيونالي البرازيلي في كأس العالم للأندية والتي تولى الكابتن محمود بكر التعليق عليها أنه لا زال مقتنعًا كأغلب مَن أعرفهم بأن عدالة السماء لا زالت في صفنا ولم تفارقنا ولو للحظة. وربما لذلك كنت متأكدًا برغم أهلاويتي الصميمة أننا سنخسر المباراة، تمامًا كما كان لديَّ تفاؤل شديد في مباراتنا مع الفريق المكسيكي أننا سنكسب لأن الكابتن محمود بكر لم يتحدث أبدًا عن عدالة السماء.

لم يكن صوت الكابتن محمود بكر وهو يعلق على مباراة إنترناسيونالي سوى صوت عقولنا التي تعمى دائمًا عن رؤية الحق وتجري وراء أوهام عاطفتها؛ ولذلك لا تتعلم أبدًا من أخطائها معتمدة على أن عدالة السماء ترفرف فوق رءوسنا وستنزل حتمًا ولزمًا قبل صفارة النهاية، مع إن أكتر من ألف صفارة نهاية نزلت معلنة هزيمتنا دون أن تنزل عدالة السماء، ليس لسبب سوى أن عدالة السماء لا تنزل على الفشلة أبدًا. عندما انتصرنا في المباراة الأولى على فريق أوكلاند سيتي النيوزيلندي لم تكن عدالة السماء تلعب معنا، بل كانت تلعب معنا فرقة ضعيفة استطعنا أن نهزمها برغم تعثر لاعبينا وتخبطهم، ولكي لا تتهمني بإنكارعدالة السماء دعني أقول لك إني أؤمن بأنها كانت موجودة معنا بالتأكيد عندما اختارت لنا ألا نلعب في المباراة الأولى مع وحوش برشلونة، ولو

كنا قد شلنا منها أربعة كالتي شالها الفرقة المكسيكية لما تغزّلنا بجمال وعظمة جوزيه كما نفعل الآن، ولكننا زففناه حتى طائرة البرتغال راكبًا بالمقلوب على حمار أجرب وطالبناه بالشرط الجزائي.

في مباراتنا مع الفريق البرازيلي كدت أصاب بالشلل وأنا أرى إصرار الكابتن محمود بكر على أن العالم كله يشجع النادي الأهلي وينبهر بأدائه الفذ، بينما لم أر في الملعب أي أداء فذ، كان هناك أداء عادي كالذي يفترض أن تلعبه أي فرقة كورة خلقها الله، والحقيقة أن العالم كله بما فيه نحن كان يعرف أن المشجعين العالميين المنبهرين بأداء النادي الأهلي هم مشجعو الفريق البرازيلي الذين كانوا يرتدون اللون الأحمر لون فانلته الأصلية، لكن الكابتن محمود قضى أغلب المباراة منفردًا عن العالم كله بالانبهار بهذا الجمهور الذي هبط على الأهلي من حيث لا يحتسب. وفي حين كان دفاعنا المجيد يحتوي أخرامًا أصغرها أكثر اتساعًا من نفق العروبة، كان الكابتن بكر يشيد بألسنتنا بعظمة لاعبي الأهلي وروعتهم وسحرهم وإذهالهم للعالم كله، ثم إذ به فجأة ومع دخول الجون الأهبل فينا ينسى كل ذلك ليؤنت في لعيبة الأهلي لأنهم سمحوا بدخول جون زي ده مالوش لازمة فينا، قبل أن يعود مع أول هجمة عادية يقوم بها الأهلي ليرفع الفرقة إلى سابع سماء ويتحدث عن إذهالها للفريق البرازيلي ثم يتساءل عن عدالة السماء التي تأخرت ثم لم تُرد أن تكسر بخاطر الكابتن محمود بكر وقررت أن تنزل بعد أن طلبها بدقائق، قبل أن يتضح مع نهاية المباراة أنه لم يكن هناك عدالة سماء ولا حتى تعادل سماء هذه المرة، وأن عدالة السماء قررت أن تنزل على الفريق البرازيلي

هذه المرة ليس انتقامًا من الكابتن محمود بكر وإنما لأنه عيب قوي أن تنزل عدالة السماء على فريق يدخل فيه «جونين هُبل» كاللذَيْن دخلا في فرقتنا المظفرة.

ومنذ أن بدا جليًّا أن عدالة السماء مش هتعبر الكابتن محمود بكر هذه المرة، قرر هو أن ينتقل إلى الأسطوانة الأخرى التي نحبها في مثل هذه المناسبات، أسطوانة «الخسارة المشرفة» والتي لا أظن أن أحدًا في العالم كله يحب سماعها مثلنا، حاول أن تتذكر معي كم خسارة مشرفة خسرناها في حياتنا على كل المستويات، في واقع الأمر لا أظن أن أحدًا في العالم كله اخترع تعبير الخسارة المشرفة غيرنا، تمامًا كما سمينا الهزيمة نكسة مع الفارق، بالنسبة لنا دائمًا الهزيمة أمر لا يستحق أن نواجه أنفسنا بعده، هناك ألف سبب وسبب بدءًا من التحكيم المارق ومرورًا بالأمطار والنجيلة والسحر الإفريقي وانتهاء بالخسارة المشرفة، مع أنه في العالم كله وعلى حد معلوماتي المتواضعة الخسارة أمر يدعو للرثاء ويستوجب المساءلة، لكن لدينا كثيرًا ما تكون الخسارة مشرفة، وكثيرًا ما نذهب لاستقبال لاعبي فرقنا بالورود والطبل البلدي لأنهم خسروا اتنين واحد أو تلاتة اتنين، بل إن أضخم استقبال حصل في تاريخنا الكروي كان لفرقتنا التي عادت من إيطاليا دون أن تفوز في مباراة واحدة، ولا زلت حتى الآن أذكر نظرات السوّاح الواصلين إلى مطار القاهرة والتي لا تفهم سر حماس كل هؤلاء الآلاف لاستقبال فريق خرج من كأس العالم دون أن يحصل حتى على خفَّيْ حُنين.

في اليوم التالي للمباراة كانت الصحف جميعًا قد تلقفت النغمة

التي أطلقها الكابتن محمود بكر قبل انتهاء المباراة وعزفناها كلنا معه وبعده ربما لأنه كان يعبر بها عن مكنون أنفسنا، نغمة أن الأهلي خسر المباراة ولكنه كسب احترام العالم كله، دون أن يسأل أحدنا نفسه كيف يمكن للعالم أن لا يوجه احترامه تجاه فرق مثل ريال مدريد وليفربول وآي سي ميلان ويقرر أن يحترم الأهلي الذي دخل فيه جونين لا يدخلان في فرقة «مركز شباب». تحب الآن أن تلعب معي لعبة الاستيقاف الشهيرة وتسألني هل أنا زملكاوي؟ إذا كنت لا تعرف الإجابة فدعني أقل لك أنا أهلاوي حتى النخاع. هل كفرت بأهلاويتي؟ أعوذ بالله وحاشا لله. هل أنا ضد الكابتن محمود بكر ومع الكابتن طارق الأدور؟ الحقيقة أنني بحكم كَرْشة النَّفَس أصبحت أفضل الفرجة السايلنت. هل أقلل من إنجاز الأهلي الذي حققه في اليابان؟ أعوذ بالله لكنني أختلف فقط في حجم الإنجاز الذي تحقق وما إذا كان إنجازًا سببه الحظ والتوفيق أكثر منه الجهد والعرق واللعب القوي. الإنجاز بالنسبة لي كان أن نكون فعلًا أفضل من الفريق البرازيلي الذي كان يلاعبنا بنصف رغبة، فلا نلعب معه بخطوط دفاعية مهترئة، ولا تحين لنا فرصة كل نصف ساعة، ولا يصبح الفوز بالنسبة لنا حلمًا متوقفًا على بركة أبو تريكة ودعاء والدته الكريمة له. الإنجاز الحقيقي هو ما فعله لاعبو الأهلي في مباراة كوبا أمريكا المكسيكي عندما لعبوا برجولة وجدعنة وقوة دون أن يبدو عليهم أنهم ينتظرون نزول عدالة السماء.

لا أريد أن أنهي هذا الحديث الذي قد يبدو لك كرويًّا تافهًا دون أن أقول لك باختصار شديد إن المشكلة الحقيقية ليست أننا ننتظر عدالة السماء في استاد باليرمو واستاد طوكيو، بل في أننا ننتظر نزولها

فوق رءوسنا في القاهرة والإسكندرية وقنا وأسيوط وأول فيصل، مع أنها لا يمكن أن تنزل أبدًا على مَن يؤمنون بالخسارة المشرفة؛ لأن الخسارة شيء حقير ولا يمكن أبدًا أن تكون مُشرّفة، فضلًا عن أنها لا تنزل على مَن يكتفي بانتظارها دون أن يكون أهلًا لنزولها، المشكلة الحقيقية في أننا لا نمتلك رؤية حقيقية لمميزاتنا أو مشاكلنا، في لحظة نتعامل مع أنفسنا على أننا أحسن ناس في الكون، وفي اللحظة التي تليها نلعن سنسفيل اللي خلفونا، المشكلة الحقيقية في إيماننا الدائم بحتمية نزول عدالة السماء مع أن السماء لا تلعب في صف أحد.

## طائر على الطريق

اليوم قررت أن أبهجك لأنك تستحق البهجة؛ لذلك لن أحكي لك أنني كنت مارًّا في طريقي إلى الزقازيق فشاهدت منظرًا لا يمكن أن تراه إلا في مصر، لا.. الكذب خيبة، يمكن أن تراه في دول كثيرة ولكن ما يصحش أن تكون مصر من بينها، مئات البشر يقفون على جانب الطريق ينظرون إلى المجهول ويُعطّلون حركة السير، تتطلع بشغف لمعرفة سر تجمهرهم، لا تراهم يحملون جراكن مثلًا ولا يبدو عليهم أثر العطش، عندما تقترب أكثر ترى - ولَيْتك لم تر - عددًا من الجثث ملقاة على الأرض ملفوفة ببطاطين تزيد حقارتها من كآبة المنظر ووعثاء السفر، في المكان تقف عربة إسعاف واضح أنها لم تسعف أحدًا، وعربية بوليس واضح أنها لم تنجد أحدًا، الناس جميعًا ينظرون في اتجاه واحد؛ هو اتجاه مدينة منيا القمح، ولا تسأل ماذا ينتظرون والبوليس والإسعاف مرزوعان عندهم والجثث متلقحة على الأرض، يعني ما حدّش مقصر، لا تسأل كيف مات مَن مات، فالأوبشنات على قفا من يشيل، حادث سيارة مروع، عبور شارع مروع ليس فيه كوبري مشاة مروعين، طريق سيئ، سائق مِوَنْوِن،

كابل كهرباء عريان، نيران إقطاعي نزق، نيران ضابط متضايق، حريق مجهول، حريق معلوم، تسمّم غذائي، تسمّم مائي لمَن وجد الماء، إهمال طبي، اهتمام طبي، لن ندق على أسباب الموت في مصر الآن، سندق في معرفة نريد متى يأتي اليوم الذي يجد المصري العادي غير المسنود معاملة كريمة وهو ميت لم يجدها وهو مدفون بالحيا، نريد فقط أن نُحسّن نوع البطانية التي نلف بها موتانا المرميين على الطرقات، فهل هذا كثير؟

أقول لك شيئًا، دعك من كلامي الفارغ الكئيب هذا، انساه كله ودعنا نبدأ من أول وجديد، مصر أجمل بلد في الدنيا، والله العظيم هي كذلك، بس للي معاه فلوس وكل مَن حوله معاهم فلوس. أنا الآن معي فلوس، ولذلك كان المفروض أن أحدثك عن جمال هذا البلد وأنه أحسن من غيره وأنه بخير وزي الفل، لكن المشكلة أنني مُحدَث فلوس، ولذلك ثلاثة أرباع من أعرفهم وربما أكثر ليس معاهم فلوس ولن يكون معاهم فلوس، لست قليل الأصل لأقطع صلتي بهم مرة واحدة، فالمسألة تحتاج إلى وقت، لذلك ولسوء حظي وحظك.. أنا أعرف جيدًا كما تعرف أنت غالبًا أن البلد ليس بخير والأحوال ليست زي الفل وأننا لسنا أحسن من غيرنا خالص. المشكلة أنني وعدتك منذ البداية أنني سأُبهجك لأنك تستحق البهجة.. والحكاية ليست ناقصة كآبة الذين خلّفوني.

أعطني فرصة أخيرة لكي أبهجك، وأعدك أنني لن أحدثك عن أن هناك مواطنًا حتى لو كان ابن ستين في سبعين يمكن أن يولع بجاز في قسم شرطة، لن أحدثك عن المصريين الذين قُتلوا في دنشواي دون

أن تقوم ثورة ١٩، ولا عن المصريين الذين فُقدوا في إريتريا لأنهم لم يجدوا الرزق في طلخا، ولا عن الأطفال الذين تصعقهم كابلات الكهرباء لأنهم لا يجدون جنينة بها زحليقة رديئة الصنع تلمهم، ولا عن الشباب الذين يرمون أنفسهم في عرض البحر لأنهم في عرض أي لقمة عيش شريفة، ولا عن محافظ لا يحترم عطش الناس فيقول إن مشكلتهم كثرة الاستحمام لأنه يعلم أن أحدًا لن يشطفه على كلام سفيه كهذا، ولا عن المواطن الذي أخذ على قفاه في بلده ببلاش فسافر إلى دولة شقيقة ليأخذ على قفاه بفلوس، ولا عن الرئيس الذي يريد إقناعنا بأنه جديد جدًّا ولاعلاقة له بالذي حكمنا ربع القرن الماضي. ماذا سأضيفه إليك لو حدثتك عن كل هذا، لن أجيب التايهة يعني، الجديد هو أن أحدثك أن مصر بلد رخيص جدًّا مقارنة باليابان وإنجلترا وسويسرا، لا يمكن أن تتخيل انخفاض سعر السويت الفندقي الفاخر لدينا مقارنة بهلسنكي أو تورينو، ولا المطاعم الفاخرة!! يا سيدي عشاء فاخر مع درينك في باريس يمكن أن تعيش به ملكًا في الفور سيزون في بلدك، علاج ضرسك في مستشفى خاصٍّ في أمريكا لو كنت خارج التأمين الصحي يمكن أن تشتري به ثلاثة أطباء تأمين صحي في بلدك المبارك، احمد ربنا أن البنزين ليس غاليًا كما هو الحال في تركيا، طب تعرف أن سعر قطعة أرض متواضعة في جزر بولينيزيا يمكن أن تشتري به الطريق الدائري في مصر، صدقني يا فندم الصورة ليست سوداء، للأسف.. حضرتك اللي اتعميت.

# قررت أن أكون رصينًا

إن هؤلاء السفلة الذين... لا.. لا داعي لاستخدام كلمة السفلة.. فهي ثقيلة حبتين.. صحيح أنها لن تلزق في أحد لأن الشتيمة لا تلزق فضلًا عن كونها تلف تلف وتطلع على عين صاحبها في المعتقل.. ولكن على أي حال مع أن كلمة السفلة لن تلزق في السفلة فلا داعي لها.. فهي صادمة؛ خصوصًا في بداية مقال يُفترض أن يقنعك بأن تقرأه حتى نهايته.. إذن دعنا نبدأ من جديد.

إن هؤلاء الأوباش.. هذه أيضًا ثقيلة.. حتى لو كانوا أوباشًا فعلًا لا أصل لهم ولا فصل ولا ندري مَن الذي لمّهم علينا وابتلانا بهم، ويمكن لنا أن نتخيل كيف كان الحال لو لم يواتهم الحظ فوصلوا إلى ما وصلوا إليه.. هذا كله صحيح لكن دعنا لا ننقاد وراء غضبنا فنستخدم كلمة ثقيلة كهذه قد تؤذي مشاعر القارئ المرهف الراقي.. صحيح أن افتراض وجود قارئ مرهف الحس يدعو للغيظ أساسًا، فهذا يعني أنه ليس لديه دم أو أنه لا يعيش في مصر أساسًا.. لكن هذا ليس موضوعنا الآن.. ما يجب أن نتفق عليه أننا

نريد استخدام مدخل مختلف للتعبير عن الغضب.. مدخل رصين يكون أكثر هدوءًا ولكن يتمكن من التعبير عن مشاعر الغضب في نفس الوقت.. مدخل هادئ مشوب بالحِدّة.. هل يبدو لك الأمر صعبًا؟ لا يجب أن يبدو لك كذلك ونحن نعيش في البلاد الوحيدة التي كل شيء فيها جايز حتى حكم العجايز وحَبَلهم أيضًا.. يعني الذي جعل لدينا ديمقراطية بنكهة الاستبداد، ورأسمالية تقفيل اشتراكي، وإسلام خالي الدسم، ورئيس لا يعترف أحد من رجاله أبدًا أنه أخطأ على مدى ربع قرن قضاه في الحكم، ولو مجرد خطأ غير مقصود، الذي حبانا بكل هذه النعم لا أظنه جل وعلا سيحرمنا من العثور على مدخل عنيف بطعم الهدوء. قل يا باسط وستُفرج.

طيب هيا نبدأ من جديد. إن هؤلاء الحقراء الذين.. يا رجل.. يعني تستبدل السفلة والأوباش بالحقراء.. هل هذا اسمه كلام؟ هناك فرق بين أن تشتم وبين أن تكتب. لا تقل لي إن هذا توصيف وليس شتيمة، فما تراه أنت حقارة قد يراه البعض تماشيًا مع العصر ومحاولة للتغيير من داخل المنظومة وواقعية سياسية، وما تراه نفاقًا وانعدام ضمير قد يراه شيخ الأزهر طاعة لأولي الأمر منكم، وما تراه أنت وُطوًّا هو من وجهة نظر الصرصار علوّ، وما تراه أنت انعدام شرف يبدو من وجهة نظر واحدة من إياهم تزمتًا، والدنيا كما تعلم وجهات نظر. يووه.. لا داعي لأن أعيد لك كلامًا يجب أن تكون قد حفظته عن ظهر قلب. المهم أن تتذكر أنك عندما تكتب مقالًا رصينًا فلا داعي لاستخدام كلمات مثل الحقراء والسفلة والأوباش وأولاد الكذا وكذا.. أيضًا لا داعي لأن تتهم أحدًا بالسرقة أو الفساد أو الهبر أو الهبش أو الشفط أو التسليك أو التفويت..

فكلها اتهامات تحتاج إلى أسانيد وأدلة ووثائق خاصة أننا نعيش في عهد الرئيس مبارك الذي بعون الله لا يتستَّر على أي فساد ولا يحمي أي فاسد، وبمجرد أن يأخذ باله من أي فاسد يرفع يده من عليه، صحيح أن ذلك يتم بعد خراب مالطة، وبعد أن يذهب الهلال والجمل بما حملا ويذهب الحمار بأم عمرو فلا ترجع ولا يرجع الحمار. حمار إيه وأم عمرو إيه؟! مالك أنت وأم عمرو، تعشق الكتابة عن الحيوانات والدخول في الأعراض، ألم نتفق منذ البداية أنك ستكون مهذبًا ورصينًا خاصة أننا نعيش في عصر يتميز بالفكر الرصين المتزن المتأني، وآن لك أن تكون متماشيًا مع هذا العصر فتكون من الذين إذا سألهم السائل: أنتو مع مين، مع الحكم المتهور، أم الحكم المغامر، أم الحكم الرصين؟ فيقولوا له بحماس: طبعًا إحنا مع الرصين.

خليك مع الرصين إذن وتعالَ نبدأ الجملة من البداية.. خذ نفسًا عميقًا وابدأ في استخدام كل مخزون الحكمة الذي لديك. وتعقّل وتذكر أن البلد في منعطف تاريخي خطر وأنها مستهدفة.. لذلك ضع مسئوليتك الوطنية أمام عينيك.. اكتب الآن. إن هؤلاء السادة الذين يفعلون بنا كل ما يفعلونه ونقابلهم بسكوت مريب ومرير يجب أن يعلموا أنهم في حقيقة الأمر ليسوا سوى ولاد كلب عايزين الحرق.

الله يخرب بيتك.. لعلك تقولها لي الآن بعد أن زهقت، ولعلك تواصل قائلًا: يا أخي أنت لست أهلًا للكتابة، وأمثالك لا أمل في أن يتوقع منهم الرصانة أو الحصافة واعتقادهم أن المرء يمكن أن يكون رصينًا بسهولة هي أكبر غلطة يعتقدونها.. وإذا لم تكن قادرًا

على كتابة مقال سياسي رصين فلماذا تتصدى له؟ ولم لا تخليك في قلة أدبك أحسن؟! بصراحة عندك حق.

ما سبق كانت محاولة جاهدة لكتابة مقال سياسي رصين بناء على نصيحة عدد من الأصدقاء بضرورة الالتزام بالرصانة لكي لا يحدث ما لا تُحمد كعباه. وكما ترى فقد باءت المحاولة بالفشل كما لاحظتم. لذا نرجو السماح والعذر على إضاعة وقتكم. ونعدكم من هنا ورايح بكتابة غير رصينة على الإطلاق.. بعد أن ثبت لنا بالدليل القاطع أنه ليس كل كاتب يصلح لأن يكون من الذين هم.. مع الرصين.

## ثورة الشك

منذ أن قامت ثورة يوليو المباركة حرصت السلطات المتعاقبة المباركة برضه على أن تظل ثورة يولية هي الثورة الأخيرة التي تقوم في مصر، ونجحت جميع السلطات بالفعل في ذلك، لكنها لم تستطع أن تتغلب أبدًا على أخطر ثورة غير مباركة تستعر في صدور المصريين يومًا بعد يوم.. ألا وهي ثورة الشك.

بات المصريون يعرفون جيدًا أن ثورة الشك هي الثورة الوحيدة مأمونة العواقب فأصبحوا يمارسونها ضد كل ما هو حكومي ورسمي دون أن تأخذ معهم الحكومة حقًّا ولا باطلًا. لم تنجح كل المليارات التي أُنفقت من أجل إنشاء أكبر شبكة إعلام موجه في الشرق الأوسط وتدجين أكبر قدر من الصحف والمشايخ والوعاظ والقسس والكُتاب والصحفيين والمعلقين والـ(...) في أن تجعل المصريين يتوقفون عن الشك فيمَن يحكمهم أيًّا كان ما يفعلونه وحتى لو كان بعضه أمرًا حسنًا لا غبار عليه، تقول لهم الحكومة يمين فيأخذون الشمال دون تفكير لأن يقينًا قاطعًا قد تولّد بداخلهم أن الحكومة لا يمكن

أن تطلب منهم التوجه إلى اليمين لوجه الله. تحلف لهم على المية تجمد أن مرتكب حادثة الاعتداء على الأقباط مختل بشهادة الأطباء فيتندرون عليها ما وسعهم التندر مطالبين بإنشاء منصب رسمي يحمل عنوان مساعد وزير الداخلية لشئون المختلين عقليًّا ومذكرين الداخلية بمقولة خد من التل يختل، متذكرين مهازل المختل المزعوم في بني سويف، والمختل المزعوم في تفجيرات التحرير، ومَن سبقهم من المختلين بإحسان إلى يوم الدين.

بالطبع لم أكن أدرك أنني سأصبح واحدًا من الخاضعين لثورة الشك هذه، فخلال الأسبوعين الماضيين استمعت وقرأت عددًا من التفسيرات والروايات الغريبة والمضحكة والمؤلمة أيضًا التي تفسر غيابي عن الدستور قبل أسبوعين، بالطبع سرّني بعض ذلك لأنني لم أكن أتخيل أنني أتمتع بهذا القدر من محبة الناس، ولم أكن أدرك أن ما أكتبه مهم إلى هذا الحد الذي يجعله محطًّا لمؤامرات متخيلة يسألني عنها مَن يحبني وتهديدات مفترضة تتداولها بعض مواقع الإنترنت، ورغم أنني منذ أن كتبت في الدستور ـ وهذه حقيقة لا أنكرها ـ لم أتلق تهديدًا مباشرًا صريحًا على ما كتبته، ورغم أنه كانت هناك تهديدات غير مباشرة وإغراءات مباشرة بأن أكتب هنا أو هناك مقابل التوقف عن ما أكتبه في الدستور، لكن ذلك لم يصل أبدًا إلى الحد الذي وصلت إليه الشائعات التي سمعتها والتي لا يمكن تفسيرها إلا بوصفها جزءًا من ثورة الشك التي يُفرّغ المصريون فيها إحباطاتهم وعجزهم عن فهم الواقع ويأسهم من الحصول على حقهم في معرفة ما يحدث في بلادهم. بالمناسبة كل ما في الأمر أنني طلبت من صاحب الفضل عليَّ العبقري إبراهيم

عيسى أن يأذن لي بالتوقف عن الكتابة عدة أشهر لارتباطي بكتابة مسلسل تلفزيوني يتطلب تفرغًا كاملًا، لكنه بمحبة خالصة وذكاء رهيب نشر برواز الاختفاء بدلًا من برواز الاعتذار، ليقذف بي في مهب رياح القلق والشك والمحبة والعتاب بل والغضب من رغبتي في التوقف ولو لأسابيع عن الدستور، والحقيقة أنني حتى ولو لم أكن لأعود فورًا إلى الدستور بسبب مشاعر المحبة الجارفة التي انهالت عليَّ، فقد كان لا بد أن أعود تكذيبًا لما سمعته من روايات وشائعات كان عدم الاستمرار في الكتابة سيحولها إلى حقيقة تساعد مطلقيها على أن يبرروا لأنفسهم بأنه لا توجد فائدة من قول كلمة الحق في هذه الأيام، وأن كل الناس مستعدون لأن يقبضوا ثمن السكوت على الحق أو يخافوا من العين الحمراء وأُمنا الغولة أو ييأسوا من الجهر بالحق.

بالطبع، فإن شيوع مثل هذا المناخ من الشك العدمي أكبر بكثير من شخصي الذي يحاول أن يكون متواضعًا، هو في حقيقة الأمر واقع مؤسف لبلاد احترقت ألسنة الناس فيها بفعل شوربة الريادة والحرية الزاهية فأدمنوا النفخ في زبادي الشفافية والفكر الجديد. لست بحاجة لأن أُذكِّرك كيف أدى مناخ الشك المقيم هذا إلى تفاقم حالات الوفيات من وباء أنفلونزا الطيور؛ لأن الناس لم يصدقوا تحذيرات الحكومة بعدم مخالطة الطيور، ظل ملايين المصريين لفترة وقبل ظهور أول حالة وفاة بشرية يشيعون أن هناك مسئولًا كبيرًا لديه صفقة دواجن مجمدة سيكسب من ورائها ملايين لا حصر لها. قبلها بأيام وعندما كان مسئولو الحكومة يُقسمون بأرواح أمهاتهم أن مصر لا تشهد أبدًا ظهور أنفلونزا الطيور، وأن الفراخ آمنة أمان مَن دخل دار أبي

سفيان توقف الناس عن شراء الفراخ وأكلها، حتى إنني اقترحت يومها على الحكومة أن تدعو الناس للامتناع عن أكل الفراخ وتحذرهم من توقيع عقوبات على مَن يأكلها، وأن ذلك سيكون كافيًا لنفاد مخزون البلاد من الفراخ في ساعات.

بلاش حكاية الفراخ، قل لي بالله عليك هل رأيت شعبًا في عز تشجيعه لفريقه الكروي القومي تنتشر فيه شائعات لا حصر لها عن أن الحكومة قامت بشراء الفرق المنافسة بمبالغ طائلة لكي تلهي الشعب عن غرق العبّارة وانتشار أنفلونزا الطيور، ناهيك عن الشائعات التي لا حصر لها والتي رافقت موضوع العبّارة بحيث لم يصدق الناس أن الحكومة أصدرت قرارات محاسبة صاحب العبّارة إلا بعد أن ضمنت سفره إلى الخارج، وعندما كتبتُ ساخرًا من أن الحكومة منعت زوجته من السفر إلى الخارج بناء على طلبه تحول ما كتبته إلى نكتة انتشرت عبر شبكة المحمول لتؤكد أن ما كتبته صادف هوى لدى الناس.

وأزعم أنه لو كان الفيلسوف الشهير ديكارت حيًّا في أيامنا المباركة هذه لشعر بالسعادة وهو يرى نظريته «أنا أشك إذن أنا موجود» وهي تتحول إلى طريقة حياة في مصر، لم يعد الشك ينتابنا فيما نأكله أو نشربه فذلك أمر يمكن أن نشترك فيه مع أي شخص يخاف على صحته ويراقب غذاءه في أي دولة من دول العالم المتقدم، بل أصبح الشك ينتابنا في كل تفاصيل الحياة التي لا تجد عليها غبارًا في كل بلاد العالم، مثل فاتورة الكهرباء التي ندفعها شهريًّا، والتي يفترض أن تكون تحصيلًا لاستهلاك فعلي يقيسه عداد مثبت داخل كل شقة، لكن هل تستطيع أن تقول لي

إنك متأكد من أنك تدفع فعلًا ثمن ما تستهلكه، إذن لماذا يختلف المبلغ الذي تدفعه بشكل غريب شهرًا بعد شهر بينما أنت تعيش نمط حياة ثابتًا لا يتغير بنفس الشكل الذي يتغير ما يطلب منك أن تدفعه؟! قبل أسابيع جاءتني رسالة على الإيميل من موظف في شركة الكهرباء بالقاهرة الكبرى لم يذكر اسمه في الرسالة التي كتبها على ما يبدو وهو يتلفت حوله خوفًا، أقسم لي في الرسالة إن شركة الكهرباء تقوم بزيادة عشوائية على فواتير الكهرباء تختلف من شهر لآخر معتمدة على أن أحدًا لن يلجأ للشكوى والتظلم ومطابقة ما يدفعه بما يستهلكه فعلًا، فالشركة تعلم أن المواطن يعلم أنه لو فعل فإن مصالحه ستتعطل وروحه ستطلع لبارئها، ناهيك عن الأضرار التي ستصيب أيمان الذين خلفوه، أما إذا وجدت الشركة مواطنًا ليس لدى الذين خلفوه أيمان ومستعد لأن يتحمل كل عنت ممكن من أجل إثبات حقه فعندها ستعتذر له الشركة وستعده بخصم الزيادة من فاتورته القادمة، هل يمكن أن أرفض المنطق الموجود في الرسالة وأعتبره هلوسة موظف كاره لشركته؟ وهل يمكنني أن أسلم به جدلًا وأعلن ثقتي الكاملة في شركة الكهرباء «اللي منورانا»، الحقيقة لم أكن لا أنا ولا أنت بحاجة لهذه الرسالة لكي نشك ونضرب أخماسًا في أسداس ونحن ندفع فاتورة الكهرباء، يكفي أننا نشارك جميعًا في مهزلة شهرية اسمها رسوم النظافة التي ندفعها شهريًّا في نفس الوقت الذي ندفع فيه شهرية الزبال، فنحن نعلم أن حكومة نظيف وغيره لن تنظف شيئًا سوى جيوبنا.

رسالة أخرى من قارئ يطلب مني أن أحذر القراء من عشرات

الأدوية التي يذكرها بالاسم، وآخر يحذر من عشرات السلع المليئة بالمواد المسرطنة، فيما يميل عليَّ فنان كبير ذات سهرة ليقول لي: «اوعى تكون بتشرب ميّة معدنية!»، ثم يحكي لي أن صديقًا له يعمل بالسفارة الأمريكية قال له إن السفارة أجرت فحوصات على كل أنواع المياه المعدنية الموجودة في مصر واكتشفت أن جميعها ماعدا نوعًا واحدًا لا علاقة له بالصحة ولا بالمياه المعدنية أساسًا، وأن ما يتندر الناس حول كون تلك المياه «بتتملي من الحنفية» شبه صحيح، ثم ينهي قصته التي لا تعلم هل هي حقيقية أم لا بأن يقول متحسرًا: «ابن الكلب مارضيش يقول لي اسم النوع الكويس.. قال إيه مايعرفوش».

لا يمكن أن تجلس في قعدة أو سهرة أو لمّة أيًّا كان المستوى الاقتصادي لمَن تجلس معهم إلا وتسمع عشرات الحكايات عن تلف هذه السلعة أو فساد ذلك المحصول، هذا يحذرك من أكل فاكهة معينة، وذلك يوصيك بأن لا تثق في السلع التي توصف بأنها عضوية وأورجانيك لأنها ليست كذلك على الإطلاق. كيف يمكن أن تمنع الناس من التفكير هكذا وهم يعلمون أن الثقة فيما يأكلونه ويشربونه لا يمكن أن تتأتى إلا بوجود رقابة صارمة تطبق المواصفات الصحية التي تؤمّن صحتهم وصحة أولادهم، وهي الرقابة التي لا يمكن أن يثق الناس فيها في ظل الفساد الضارب أطنابه في البلاد، قل للناس إن هناك ملايين من الشرفاء الذين لا يرضون الإضرار بمواطنيهم وسيقول لك الكثيرون ساخرين: «وأنا إيش ضمّني»، فالمشكلة ليست في وجود الرقيب الشريف، المشكلة في ضمان شرف مَن سيحاسبه، وإلا قل لي لماذا انتشر السرطان وغيره من الأمراض اللعينة بهذا القدر المفزع في ربع القرن المنصرم؟ بل دعني أقل لك

وقد كنت مدمنًا بحكم الفقر لعربيات الكبدة والسجق إنني كنت أثق فيها أكثر من ثقتي فيما آكله في بعض المطاعم الفاخرة الآن.

لست أهدف لأن أُكرّهك في عيشتك وفيما تأكله وتشربه، فأنا وأنت في مركب واحد وآدينا نفضفض سويًا في انتظار النجاة أو الغرق لا قدر الله، وأنا وأنت نعلم أنه ليس لدينا خيار آخر إلا أن نأكل ونشرب ما هو متاح لكلٍّ منا حسب إمكانياته، وأن نسعى للبحث عن أصح ما هو موجود من باب أن نصف العمى أفضل من كله، لكن ما أريد أن أقوله هنا هو أن كلامنا هذا يثبت خطأ وخطل وهطل ما يردده موالسو الصحف القومية من أن مطالب القضاة والصحفيين وأساتذة الجامعات والمهندسين والأطباء وغيرهم من نخبة مصر المشرقة هي مطالب سياسية بعيدة عن أرض الواقع ولاعلاقة لها بهمّ المصريين البسطاء المنحصر في المأكل والمشرب. بينما لو كان لدينا ثقة فيمَن يحكمنا لأننا ندرك أننا اخترناه اختيارًا حرًّا مباشرًا لا تزوير فيه ولا سحل ولا رصاص مطاطيًّا لأصبحت لدينا ثقة في أنه سيوفر لنا ماءً نظيفًا خاليًا من السموم وغذاءً خاليًا من المواد المسرطنة، لو كانت لدينا ثقة في أن مَن يحكمنا راغب في محاربة الفساد وقادر عليه فسنضمن أن مَن سيغش ما نأكله في عربية كبدة أو مطعم خمس نجوم سيروح في ستين داهية دون أن يجد ظهرًا يستند عليه أو ظرفًا محشيًّا يتكأ عليه.

الغريب أن شعبنا المرهق الثائر شكًّا يعلم أن الشك إذا دخل في علاقة زوجية أفسدها إلى الأبد بحيث تصبح مستحيلة ولا حلّ لها

إلا الطلاق، لكنه يفضل أن يستمر في علاقته بهذه الحكومة التي خانته خيانة واضحة وضوح دخول المِيل في المكحلة، بل وأدمنت خيانته والتلاعب بمصيره ومستقبله وصحته وحياته ورزقه، ومع ذلك يرفض أن يُطلِّقها طلاقًا بائنًا مكتفيًا بثورة الشك، ثم يسأل: لماذا لا ينصلح حاله المايل؟! يا أخي.. هاأو.

## ومِن أهم صادراتها القمع

كان ينبغي أن أسيطر على نفسي وأنا أقرأ الخبر لكنني فشلت في كتم انفعالاتي التي تدفقت خارجة مني ومثيرة انتباه الجالسين في المساحة المخصصة للإنترنت اللاسلكي في لوبي الفندق التركي المطل على بحر إيجه. لم يتمكن جاري الروسي من مغالبة فضوله ليسألني عما بي معربًا عن تمنيه بألا أكون قد تلقيت خبرًا سيئًا «من بلادي»، كان بسؤاله الودود يحاول أن يواصل ما بدأناه منذ يومين؛ وهو التنافس على إظهار أي منا إنجليزيته أقل رداءة من الآخر، كنت أريد أن أفضفض وأحكي لوعتي لما قرأته للتو «من بلادي وعنها»، لكنني اكتشفت أنني مصاب بذلك الداء الأثيم الذي طالما هاجمته لدى الآخرين؛ داء الخوف على سمعة مصر، لم أُرد أن أُشمّت فيَّ ذلك الروسي أحمر الوجه كَيَدِ قِرْد بعد أن ظللت أحدثه ليومين عن عظمة بلادي وحاضرها الزاهر ومستقبلها المشرق، صحيح أن مساحة من الود نَمَت بيننا بعد مداعبتي الدائمة له بترديد كلمة «خراشوف» أشهر كلمة روسية ـ تعني نعم ـ بعد أن شرحت له معناها غير المريح في مصر، وكيف يمكن أن يذهب المرء منا إلى السجن

لو قال «خراشوف» بدلًا من نعم في أي استفتاء رئاسي، كان بيننا ود آخذ في التنامي، لكنني بصراحة لم أكن بحاجة لكي أسمع منه تعليقًا يحزنني على حال مصر أكثر مما قرأته بالفعل، ولذلك كان يجب أن أكذب.

بكل ثبات قلت له: «كل شيء على ما يرام»، قال لي: «لكنك كنت تصدر أصواتًا غريبة تدل على أنك تشعر بالأسى والغضب!»، قلت بجدية شديدة: «أنا.. أبدًا.. أي أسًى وأي غضب؟! بالعكس أحوال بلادي تدعو للفخر»، مستغربًا سألني: «هل هكذا تُعبّرون عن الفخر في بلادكم؟»، قلت له: «خراشوف، فنحن شعوب انفعالية متدفقة المشاعر ولسنا باردين في تعبيرنا عن مشاعر الفخر مثلكم، ولذلك لو زرتنا ستجدنا في مفخرة دائمة. خراشوف!»، هز رأسه متعجبًا ثم قال لي: «إذن يبدو أنك كنت فخورا جدًّا هل يمكن أن أعرف ما الذي دعاك للفخر هكذا؟»، قلت له: «طبعًا فلربما شاركتني الفخر والمفخرة وتحسرت على أحوال بلادك». ينبغي أن تعلم أننا كنا في اليوم السابق قد تناقشنا مطولًا (لم يكن سبب طول المناقشة سخونة موضوعها بقدر محاولتنا تذكر مفردات نفهمها لكي يستمر الحوار) حول خبر قرأته في جريدة التايمز عن دعوة أكبر زعماء المعارضة الروس لقادة الدول الصناعية السبع لأن يمارسوا خلال قمتهم التي ستنعقد في سانت بطرسبرج بروسيا ضغوطات عنيفة على الرئيس الروسي بوتين لكي يقوم بإصلاحات ديمقراطية حقيقية ويتوقف عن ممارسة الخداع السياسي والهروب من الإصلاحات التي وعد بها، سألته بعدها: هل تعتبر زعيمًا مثل هذا خائنًا لأنه ينشر غسيل روسيا القذر على العالم ويستقوي بالغريب على القريب، قال لي كلامًا

كثيرًا استعنت على شقاء فهمه بالله لأتوصل إلى أنه لا يرى مشكلة في ذلك طالما الرجل قال كلامه هذا علنًا ولم يلجأ لاتصالات سرية يعمل فيها ضد بلاده، جرَّنا النقاش إلى الحديث عن أحوال «ماي كانتري» السياسية فقلت له إننا لا يمكن أن نشهد قيام أحد لدينا بمثل هذا التصرف لأننا نؤمن بأنه «أنا وأخويا على ابن عمي وأنا وابن عمي على الغريب» طبقًا لأغنية مطرب الشعب عبد الباسط حمودة، لم يفهم شيئًا فآثرت ألا أنزلق للحديث عن أحوال «ماي كانتري» السياسية مؤكدًا له أننا نعيش أزهى عصور الحريات ثم محوّدًا فورًا للحديث عن الخسارة الفادحة التي حققها بعدم زيارته لمصر حتى الآن محاولًا أن أغطي فراغ إعلانات وزارة السياحة بأن أحكي له عن حلاوة شمسنا وخفة ظلنا مؤكدًا كذبًا وزورًا بأن الجو عندنا ربيع طول السنة، على أساس أن الكذب حلال لخدمة الوطن. وعليه كان لا بد أن أواصل الكذب في اليوم التالي عندما ضبطني متلبسًا في نوبة مفخرة صاخبة كان لا بد أن أشرح له سرها.

قلت له: «قد يبدو لك الموضوع بسيطًا لكنه ليس كذلك بالنسبة لي. لقد قرأت خبرًا في موقع صحيفة يومية تَصدُر في بلادي عن مكالمة قام بها رئيسنا المحبوب لطالبة في أولى ثانوي أو في الهاي سكول زي ماتقدر تقول كده، لو فهمتني قول خراشوف»، بدت عليه مشاعر الاهتمام لكنه لم «يخرشف» على كلامي بل سألني: «وما الذي يجعل رئيس البلاد برغم كل مشاغله يكلم طالبة في الهاي سكول؟»، قلت له: «شوف يا سيدي أصل الستوري وما فيها أن هذه الطالبة قامت أثناء إجابتها عن سؤال في امتحان اللغة طلب منها أن تُعبر عن رأيها حول غزو الصحراء لكنها استسلمت

لوساوس الشيطان فكتبت في الموضوع كلامًا لا يليق هاجمت فيه علاقة مسئولي بلادنا الحميمة بالأمريكان وهي علاقة بريئة للغاية، لكن الطالبة استسلمت لدعاوى بعض المغرضين لدينا فكتبت كلامًا لا يليق، وعندما ذهبت أوراقها إلى مكان تصحيح الأوراق فوجئ المدرسون الذين صححوا الأوراق بما قرأوه فأبلغوا عنها»، قاطعني قائلًا: «هل تذهب أوراق الطلاب لديكم إلى المخابرات مثلما كان يحدث لدينا أيام الكي جي بي الله لا يعودها؟» ـ لم يقل الله لا يعودها طبعًا ولكنه عندما جاءت سيرة الكي جي بي تمتم برطن مشوب بالخوف استنتجت أن معناه الله لا يعودها ـ قلت له: «لا، أبسوليتلي، ولكن نحن نتمتع بإحساس عالٍ بالخوف على الوطن؛ ولذلك فالمدرسون الذين صححوا الأوراق ومن موقع خوفهم على أمن الوطن ارتابوا في وجود صلة لهذه الفتاة بأجهزة استخبارات أجنبية تريد اختراقنا من الداخل فأبلغوا عنها، وبالفعل جرى التحقيق معها للتأكد من عدم حصولها على تمويل أمريكي كالذي يحصل عليه بعض المعارضين، خاصة أننا لسنا مثلكم، فنحن نرفض أي مساس خارجي أمريكي بشئون الوطن»، ظهرت على ملامحه ملامح غباء روسي أصيل وقال لي: «آسف جدًّا هل ممكن تعيد ما قلته ثانية؟ ألم تقل إنها هاجمت صلتكم بأمريكا في أوراق إجابتها فكيف تشكّون في كونها على صلة بأمريكا؟ ثم ما هي الجهة التي يمكن أن تجد الوقت لكي تقوم باختراق مصر من خلال طالبة في الهاي سكول؟»، قلت له: «وهل تريدنا أن نفعل مثلكم فنصدق أن الأمريكان حسنو النوايا ثم نفاجأ بانهيار بلادنا؟ نحن نسايرهم في كل شيء ولا نعصي لهم أمرًا.. لكن في الوقت نفسه يجب أن

نكون متأكدين أنهم لا يريدون الإطاحة برئيسنا مثلًا.. يا صديقي نحن لا نتيح أي فرصة للمصادفات لكي لا تنهار بلادنا مثلما حدث لديكم.. فنحن نعرف أن الدول تنهار عندما تفقد إحساسها بالخطر؛ ولذلك لا نترك كبيرة مغرضة ولا قلة مندسة إلا أحصيناها.. وبعون الله لا نعتق حتى الجنين في بطن أمه لكي نتأكد من أنه يرفض التدخل الأجنبي فيما يفعله رئيسنا بنا.. ولذلك حققنا مع هذه الطالبة، وعندما تأكدنا من أنها لا تحتوي بداخلها على أي قلة مندسة صفحنا عنها وقام رئيسنا بجلالة قدره بالاتصال بها لكي يقول لها إنها حرة ويمكن أن تعبر عن رأيها كيفما شاءت»، قاطعني الروسي السخيف ثانية وقال لي: «هل أنتم عادة بحاجة لاتصال من الرئيس للتعبير عن رأيكم؟»، قلت له: «الحقيقة الرئيس لا يحب إزعاجنا كثيرًا لذلك فهو لا يتصل بكل مَن يتم التحقيق معهم، ربما لأنهم لا يمتلكون أجهزة محمول، خاصة أنهم يكونون عادة في السجون وأنت تعلم أن المحمول خطر على صحة الجنين والسجين؛ ولذلك لا يتمكن عادة من الوصول إلى الإيريا التي يكونون فيها، لكنه وكما ذكرت الصحيفة التي أصابتني بالفخر اتصل بشكل مفاجئ بوزير التعليم فوجد عنده الطالبة التي كان الوزير ينصفها بالمصادفة بعد أن كان قد أصدر قرارًا برسوبها قبل يومين، ثم أناب وثاب إلى رشده وأمر بإعطائها فرصة أخرى»، قال لي الروسي: «أوه ماي جود لا بد أن رئيسكم لديه إحساس عالٍ بالمواطنين بدليل حدوث مثل هذه المصادفة»، قلت له فخورًا: «لا تنس أننا نعيش في بلاد غنية بالطاقات الروحية الخلابة ونسبة التخاطر والتخابر لدينا عالية كما أنك لا تعلم أن قلب وعقل رئيسنا يتسع للسبعين مليون مصري ـ

كما يؤكد دائمًا ـ شريطة أن يكونوا في مكان مكشوف فلا يكونوا في سجن مثلًا أو في تخشيبة أو تحت حذاء»، بدا أن كذبي جاء بنتائج مبهرة عندما بدأ الرجل يسب ويلعن في رئيسه غير المحبوب الذي لم يُضبط أبدًا بالاتصال بطالبة هاي سكول لكي يعطيها الإذن بالتعبير عن رأيها، فأخذت أغيظه قائلًا: «إن مشاعر المحبة المتبادلة بيننا وبين رئيسنا أدت لأن نحس به فورًا فنكون كلنا عينًا ساهرة على الوطن، يعني في خلال يومين فقط قرأ مصحح لدينا إجابة تهاجم رئيسنا فسارع للإبلاغ عمن كتبها دون أن تأخذه بها شفقة لأنها طالبة في عمر الزهور، وعندما شاهد عميد كلية الزراعة في جامعة المنيا لدينا طالبًا متفوقًا في مظاهرة لقلة مندسة على الوطن والجامعة أبلغ عنه لكي لا يتم تعيينه كمعيد، وعندما شاهد مجموعة من المحامين الغيورين على الوطن كاتبًا مارقًا اسمه إبراهيم عيسى يعارض الرئيس جافاهم النوم حتى يأخذوا للرئيس بحقه منه، ناهيك عن ما يحدث كل يوم من إبلاغ كُتاب الصحف الحكومية أجهزة الأمن عن زملائهم في تقارير علنية منشورة في الصحف، نحن لسنا شعبًا نائمًا على أذنيه يا صديقي المسكين، باختصار نحن ليس لدينا استعداد لكي نرى بلادنا وهي تنهار مثل بلادكم حتى لو فتشنا كل ورقة إجابة في كل المراحل وكل حائط مرحاض، وسجنًا كل صحفي ينسى نفسه ورئيسه، ومنعنا كل صاحب رأي معارض من الحصول على منصب في أي موقع مهم، قد تحدث لدينا أخطاء فنحن بشر ولسنا ملائكة، وعندها سيتصل الرئيس إذا استطاع بمَن وقع عليه الخطأ، أما إذا لم يستطع فلن يترك الرجل منصبه ومشاغله لكي يتصل بكل مَن تم سحله أو تعذيبه أو الاعتداء عليه نتيجة

لخطأ في التطبيق، ألا تعلم أننا صرنا نُصدِّر الأمن إلى العالم؟!»، قال لي مستغربا: «لاداعي للمبالغات.. ومنذ متى يُصدّر الأمن يا صديقي؟»، قلت له: «زمان كنا نبني الأهرامات ونُصدّر الحكمة للعالم.. الآن وقد أصبحت الحكمة متاحة لمن يسوى ولا يسوى أصبحنا نُصدّر الأمن.. لوك.. ألا ترى هذا الخبر في هذه الصفحة من الجريدة التي أصابتني بالفخر.. إنها تتباهى بزيارة نائب مدير شرطة العاصمة الصينية بكين لوزارة الداخلية لدينا لكي يستفيد من خبرتها في حفظ الأمن في تنظيم دورة الألعاب الأولمبية في بكين عام ٢٠٠٨.. تخيل.. الصينيون الذين يغزون أسواقنا بملايين السلع من السجادة التي نصلي عليها إلى خلة الأسنان التي نخلل بها والذين يقمعون الثورات بدهس المتمردين بالدبابات جاءوا إلينا صاغرين ليطلبوا منا أن نُصدّر لهم الأمن .. هل رأيت هناءً كهنائنا؟! لعلمك لن تنقضي هذه السنة حتى يدرس أطفال العالم عن بلادنا في كتب الجغرافيا بلادًا كانت مهدًا ولدت فيه الحضارة وأصبحت مهدًا تنام فيه الحضارة.. حكمها بالصدفة ولأكثر من ثلاثين عامًا رجل كان يحلم بأن يكون سفيرًا في لندن.. ومن أهم صادراتها التصريحات والوعود الانتخابية والتعديلات الدستورية والأمن بشتى أنواعه.. هل كان يمكن أن نحقق نجاحًا كهذا لو لم نكن جميعًا يقظي الأعين مشرئبي الأرواح لرصد أي خروج على الأمن في بلادنا، خراشوف؟»، هز الروسي رأسه مخرشفًا ومتأثرًا، وأزعم أنه كاد يقول لي إنه كاد يود أن يكون مصريًا لكن كبرياءه القومي منعه من إعلان تلك الرغبة فورًا، فأراد تغيير الموضوع ليسألني عما كان من أمر الطالبة التي اتصل بها الرئيس، قلت له: إنها ما إن سمعت

صوت الرئيس يرن في أذنيها حتى خشعت متصدعة واعتذرت له عمّا بدر منها، بل ودَعَته لزيارتها في مسقط رأسها فلم يكسفها الرئيس ووعدها بذلك إذا سمحت الظروف، بل وبلغ من سماحته أن استمع إلى والدها وهو يقول له إن ابنته أخطأت في التعبير عن رأيها بسبب حداثة سنها، فقال له الرئيس ألا يعاقبها وأن يشجعها على إبداء رأيها»، قال لي الروسي الذي عاد لعدم الفهم ثانية: «لكن إذا كان الرئيس يشجع البنت على إبداء رأيها فلماذا حدث كل ما حدث؟»، قلت له دون تلجلج بعون الله: «لأننا بلد مستهدف ولا يمكن أن نعتمد دائمًا على سماحة صدر الرئيس؛ لذلك فنحن نقمع مَن نشتبه في أنهم يستغلون الحرية بشكل غير لائق، ثم نترك الأمر للرئيس لكي يتصل بمَن أراد منهم حسب مشاغله وحسب قوة تغطية شبكة عدله وعفوه». جاء الجواب مفحمًا فأحببت أن أختتم النقاش وأنا ظافر قبل أن يأتيني منه سؤال آخر فيكلفني ما لا أطيقه من كذب، استأذنته في الانصراف تاركًا إياه في حالة لخبطة قومية شاملة باحثًا عن مكان آمن أطلق فيه العنان لمفخرتي بأحوال «ماي كانتري».

في اليوم التالي وعلى بوفيه الإفطار الذي كنت على وشك أن أعب منه عبًّا قابلني الروسي الأحمر بابتسامة شامتة واضحة المعالم، توجست منها خيفة فور رؤيتي لها؛ ولذلك لم أسأله عن سرها، لكنه لم يعطني الفرصة، أخرج من حقيبة يده عدد مجلة النيوزويك الأمريكية الأخير الذي كان قد نشر تحقيقًا مؤلمًا ومخزيًا عن مستقبل مصر بعد مبارك بعنوان «ما بعد الفرعون»، أطرقت بوجهي إلى الأرض متخيلًا أنه فقس كل شيء وأدرك أني كذاب أشر، قال لي بصوت حافل بالاحتقار: «الكلام الذي قرأته في النيوزويك أثار

فضولي لأنه بدا متناقضًا تمامًا مع ما قلتَه، قلت ربما كان الأمريكان يكذبون في حديثهم عن بلادكم، فدخلت إلى الإنترنت لأقرأ عن بلادكم كثيرًا في مواقع الصحافة الأجنبية ومنظمات حقوق الإنسان، قلت له وأنا حائر بين أخذه على حجري أو التحفز لنقاش طويل: «وكيف وجدت الحال عندنا»، أعطاني العلج الروسي ظهره ثم استدار وقال لي كلمة واحدة.. «خراشوف».

خراشوف.. كأنني لم أشُف الخرا بعد يا خواجة.

## فساد بالمكسرات

أن تسمع بالفساد وتلعنه وتكتب ضده خير من أن تراه بأم عينيك. صدقني عندما أقول لك ذلك، أو انتظر حتى أحكي لك (والله على ما أقول شهيد) واقعة الفساد هذه التي شاء قدري أن أشاهدها وأعرف هويات مرتكبيها وأنا مكتوف اليدَيْن، تمامًا كأي جبان يشهد بعينيه جريمة اغتصاب مكتفيًا بالبكاء خوفًا على حياته.

كنت أتسكع على غير هدى في المول الفخيم المطل على النيل، عندما دفعني هوسي بالمكسرات صوب ذلك الكشك الأنيق الذي أقامه محل بيع المكسرات الشهير في الدور الأول من المول، سَلِمَت يدا مَن أبدع هذه الفاترينة الضخمة الفارهة التي يتجاور فيها المملح مع المحمص مع المقرمش فضلًا عن كل ما يخطر على بالك من أفخر أنواع الياميش حلوه وحادقه، لا يفترض فيك أحد هنا أن تشكو من التهاب الأسعار، وقد دخلت برجليك إلى مول كهذا، ثمن كوب الفرابتشينو في كافيهاته يشقى الملايين خارج هذه الجدران المكيفة ليحصلوا عليه كأجرة عمل يوم طويل، احمد الله

على أنك بتّ تعرف كُنه الفرابتشينو ولم تعد تظنه ماركة عطر، ثم زده حمدًا على نعمة أن المكسرات لم تعد مرتبطة بالكام لوزة التي يخلطونها بكميات السوداني ويحشونها لك في القطائف لتلهطها في ليالي رمضان المعظم، واختر إذن بقلب جامد ما لذّ وطاب مما غلا ثمنه ووجب أكله.

فجأة أخرج من خواطري الطبقية عندما يقتحم نطاق الكشك ثلاثة أشخاص مريبو الملامح، أشعر حرفيًّا أنهم شفطوا الهواء المحيط بنا، يرتبك الشاب الواقف في الكشك بشدة عندما يرددون له أسماءهم وصفاتهم، البهوات مفتشو صحة جاءوا في زيارة مفاجئة لِتَفَقُّد بضاعة الكشك، ما هذا الحديث المريب عن ملامحهم؟ ألا ينبغي أن تفرح لأن ذراع رقابة الحكومة لم ترتعش وهي تدخل هذا المكان الذي لا يمتّ بصلة لكل ما حوله من عشوائيات، ألا ينبغي أن تنظر إلى رجالها بمودة صافية لأنهم لم يلقوا بالًا لفخامة الكشك وقرروا أن يتعاملوا معه كأيتها عربية كبدة وسجق متلقحة فيكي يا شوارع مصر، هل نسيت أصلك وفصلك وبدأت تكيل بمكيالين، أحاول ألا أقسو على نفسي وأطالع ملامحهم مستعيدًا ما كنت أسمعه من جدتي عن تبدل سحنة الإنسان عندما يعتاد أكل الحرام، تزداد ريبتي عندما أرى الحوار يدور همسًا وغير مريح بينهم وبين شاب الكشك، أقرر أن أنتظر مستندًا إلى عامود مجاور للكشك ومتلصصًا على ما يحدث؛ لأستمع بعد دقائق إلى هذه المكالمة التي أجراها كبير المفتشين مع محامٍ يبدو أن شاب الكشك لديه تعليمات بالاتصال به في زيارات كهذه.

«مافيش يا متر، أصل جالنا بلاغ في الإدارة من ست اسمها... بتقول إنها اشترت من الفرع بتاعكو ده كمياتياميش ولما روحت لاقت فيه ديدان وأجسام متحركة، وقدمت مع شكواها عينات تؤكد كلامها.. يا بيه أنا عارف أنا باقول لك إيه.. البلاغ معايا وتقدر تشوفه بنفسك.. وبعدين على فكرة العينات اللي انت عارضها أصلاً فيها روايح مش كويسة.. وكمان مش محطوط عليها تواريخ صلاحية.. يا بيه مافيش حاجة اسمها فتارين.. المفروض إنك تحط على كل حاجة تاريخ صلاحيتها.. أنا مضطر آخد عينات وأوديها الفحص وأشمّع المكان وأعمل محضر بالشكوى.. إيه.. يعني اللي تشوفه بقى أنا تحت أمرك.. مع حضرتك (...) على فكرة الحاج (...) عارفني كويس.. أنا جيت قبل كده فتشت عندكو في المصنع في ستة أكتوبر.. يا بيه أنا تحت أمرك.. أنا هاعمل معاك واجب جامد عشان خاطر الحاج بس.. بس أنا معايا زمايلي.. إن شاء الله.. ولا يهمك يا بيه.. ماتِشْغلش بالك.. أنا هاضبط كل حاجة.. بس أنا مش هاقدر أرجع من غير ما أعمل محضر.. ماتقلقش هاعمل محضر إني مالاقيتش تواريخ الصلاحية.. آخرها هيتعمل لك غرامة.. يعني هيجي لك أمين شرطة كمان سنتين يحصلها.. ماتقلقش يا بيه.. إحنا عارفين بنعمل إيه.. ماشي على ما أقفل المحضر أنا مستني سيادتك.. ابقى سلم لنا على الحاج.. كلم المتر يا كابتن».

أشعر بالغثيان فأبتعد عن مسرح الجريمة مكتفيًا بما اقترفته من تواطؤ بالصمت، أطيح بكيس المكسرات في أقرب صندوق مهملات، لا أكاد أبتعد خطوات حتى يناديني عامل النظافة: «يا بيه الكيس ده بتاعك؟»، أهز رأسي نافيًا فألمح نظرة فرح تلتمع

في عينيه فتزيدني انكسارًا وخذلانًا، أفكر أن أنصحه بترك الكيس، لكنني أتذكر مَن أنا ومَن كنت وماذا سيفعل هو لو قلت له ما سمعته، أتركه لفرحته وأسارع بالخروج من المول قبل أن تخنقني رائحة العفن التي يظنون أنها تختفي بتأثير الفريون، وأتمنى أن أجد وسط العفن الذي ينتظرني بالخارج.. نسمة هواء، هواء بتاع ربنا.

## المهم ما يكونش ماليزي

عندما شاهدت إعلانًا تلفزيونيًّا ساحرًا يدعو للسياحة في ماليزيا وربوعها الخلابة أعقبه إعلان صحفي كبير يدعو المستثمرين إلى الاستثمار فيها مُقدّمًا فُرصًا لا تقاوم، تذكرت على الفور ذلك الحوار الذي اتسحب فيه المرشد العام للإخوان المسلمين محمد مهدي عاكف من لسانه وقال إنه لا يمانع في أن يحكم مصر ماليزي مسلم، وبرغم مرور أشهر على ذلك الحوار إلا أن ثورة غضب العديد من كُتاب الصحف القومية لم تهدأ حتى الآن، فهم ما فتئوا من ساعتها يُغنون ويردون على بعضهم مطالبين بتوقيع أقصى العقوبة على مرشد الإخوان الذي أتى شيئًا إدًّا، تسألني هل أنا ضد ما قام به هؤلاء؟ أستغفر الله، فقد سبق لي أن أعلنت مطالبتي للمرشد بأن يعتذر عن جملته المنفلتة «طظ في مصر» لعله يضرب مثلًا حسنًا لما نطالب به مسئولينا بأن يعتذروا عن أخطائهم دون قضاء الوقت في التبرير والتفسير، وبالطبع لم يعتذر المرشد ليعطي ذريعة لكُتاب الصحف القومية بالاستمرار في مهاجمته هو وجماعته كأن مصر لا تعاني مشكلة غير الإخوان، وكأنهم باتوا أعداءً للشعب المصري لن تستقيم

حياته طالما بقي لهم وجود. وهو ما يجعلك وأنت تقرأ لبعض هؤلاء الكُتاب هجومهم الشرس على مرشد الإخوان الوحش الذي يريد لمصر أن يحكمها ماليزي تسأل نفسك: هل يأتي هذا الهجوم انطلاقًا من غيرة هؤلاء على وطنهم؟ يعني إذا كان هؤلاء الكُتاب غاضبين جدًّا لمجرد افتراض أن مصر سيحكمها ماليزي، فلماذا لا يغضبون ولو لمرة لأن حكامها يعاملون الشعب المصري على أنه مجموعة من قبائل الهونجا كونجا البدائية التي ليس لها ذاكرة أو فهم أو عقل جمعي؟ وهل المفروض أن نشعر أننا بلغنا غاية المنى لمجرد أن الذي يحكمنا مصري كريم العنصرين حتى لو استَغفلنا واستَنطعنا ومسح بنا أسفلت الشوارع وجعلنا نمشي في الشوارع نكلم أنفسنا؟ خلينا صُرحاء مع بعض وكأننا قاعدين مع بعض قعدة صفا نُحلّق في الخيال دون أن يشاركنا في خيالنا مرشد إخوان أو مرشد في أمن الدولة أو مخبر صحفي في روز اليوسف، هل ستكون عزيزي المواطن غاضبًا حقًّا لو حكمك ماليزي أو مالديفي أو رواندي ـ حاصل على الجنسية المصرية علشان ما تزعلش ـ وعاملك معاملة آدمية كريمة وكفل لك قوت يومك وعرف قيمة وأهمية بلدك وحارب المفسدين فيها وحكمها بالعدل ومنعك من أن تضرب على قفاك فيها؟ هل سترفض ذلك جملة وتفصيلًا أم أنك ستقع تحت وطأة هذا العرض المغري فتقول لنفسك: وما له يعني؟ ألم يحكمنا يومًا ما الألبان والأتراك والفُرس والتتار والهكسوس والعرب؟! وتتذكر ما قاله صلاح جاهين في رائعته «على اسم مصر»: «لما الرومان هجموا ثم التتار هجموا ثم العرب هجموا وكل واحد فيهم جه مسح قدمه على اسم مصر».

بالمناسبة دعنا هنا نتخيل ما الذي كان سيحدث لمرشد الإخوان

لو كان هو الذي كتب مقطعًا به هذا التعبير «وكل واحد جه مسح قدمه على اسم مصر»؟ ودعنا نتخذ من هذا التخيل مدخلًا لمزيد من الأسئلة: لماذا إذن هذه الحملة الشرسة على رجل افترض مجرد افتراض أن هناك ماليزيًّا سيحكمنا؟ ولماذا غضبنا كل هذا الغضب لما سمعنا اسم ماليزيا على أساس إن ماليزيا دولة واقعة من التمنتاشر أو أكلها قطار الإصلاح الذي أكلنا؟ هل فكّر أحدنا وهو في ثورة غضبه على فكرة أن هناك رجلًا ماليزيًّا سيحكمنا أن يدخل أولًا على واحد من عشرات مواقع الإنترنت ليلقي نظرة على ماليزيا وتجاربها الاقتصادية والسياسية والسياحية والاجتماعية التي أذهلت العالم؟ أعلم أنني سأُتّهم بالتواطؤ مع مرشد الإخوان المسلمين، وأنني ضد القومية المصرية ومع الأممية الإسلامية، ولن أُضيّع وقتك في الدفاع عن نفسي، بل سأذكرك فقط بأنني هنا لا أُعلن مواقف بقدر ما أطرح أسئلة، ومن حقك أن تشاركني فيها أو تطرح معي أسئلة تشتبك معها، خاصة وأننا نحلق في فضاء التفكير المطلق لأننا نعلم أنه لا يوجد ماليزيّ يقف في صالة الانتظار في مطار القاهرة يطلب حكم مصر، وهو ما يمكن أن تظنه وأنت تقرأ حملات الهجوم الشرسة ضد مرشد الإخوان المسلمين والتي لم تتوقف.. ويبدو أنها لن تتوقف.

اتفقنا؟ طيب.. فلنواصل الأسئلة إذن، لو افترضنا أن صانع النهضة الماليزية مهاتير محمد والذي يقولون إنه يحب زيارة مصر كثيرًا وافق على عرض مقدم له بمنحه الجنسية المصرية مقابل أن يتولى رئاسة وزراء مصر، وتُعطَى له كافة الصلاحيات السياسية والاقتصادية وتتعاون معه كافة الجهات الرسمية والشعبية لتحقيق تجربة موازية لتجربته في ماليزيا، هل نرفض افتراضًا كهذا لمجرد أن مهاتير محمد

ماليزي؟ طيب لماذا؟ لن أقول لك لماذا نفتخر بمحمد علي باشا كباعث لنهضة مصر الحديثة وهو ألباني، فأنا أعلم أنك ستقول لي إننا خلاص طوينا صفحة أن يحكمنا حاكم غير مصري إلى الأبد، ولن أخوض معك جدلًا تاريخيًّا عقيمًا أدّعي فيه أنني لا أعتبر محمد علي ألبانيًّا بل أعتبره أكثر مصرية من بعض حُكام مصر الذين لم يحملوا منها سوى اسمها على جوازات سفرهم، فقط سأسألك: هل نحن حقًّا نرفض أي تدخل أجنبي خالص في شئوننا؟ وهل العيب أن نفترض ولو حتى في الخيال أن ماليزيًّا حكمنا بينما ليس من العيب أن نشاهد السفير الأمريكي وهو يصول في كل محفل يتحدث عن بلادنا وسياساتنا وما ينبغي على حكامنا فعله ولا يجرؤ أحد على أن ينبس معه ببنت شفة، هي جت على ماليزيا يعني؟ ما الذي سيحدث لو توقفنا قليلًا عن الارتماء في أحضان الولايات المتحدة وبريطانيا وأوربا وانفتحنا بصدق ومحبة على دول مثل ماليزيا وتركيا وإيران؟ أم أنه مكتوب علينا دائمًا وأبدًا أن نستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير، ألن يكون الخبراء الماليزيون والإيرانيون والأتراك أقرب إلينا من الخبراء الأمريكان والإنجليز والفرنسيين الذين لم نتقدم بفضلهم خطوة إلى الأمام؟ ولماذا ركبتنا النعرة القومية في موضوع ماليزيا هذا بينما لم تظهر أبدًا ونحن نعتمد على العالم في كل ما نأكله ونلبسه ونشربه ونتعلمه؟! ألسنا كذلك ولَّا أنا مش واخد بالي؟! وإذا كنا نرى أن الولايات المتحدة هي ماما وبابا وأغلى اسم في الوجود الدولي، فلماذا لا نقتدي بتجربتها في احتضان الخبرات الدولية المرموقة ومنح كل من نَبَغ جنسيتها والتعامل معه على أنه أمريكي كريم العنصرين وإعطائه كل ما يحتاج إليه لتحقيق حلمه الشخصي الذي سيصب في

النهاية في مصلحة الحلم الأمريكي؟ أم أن المسألة هي نعرة كدابة وخلاص؟ أخشى أن تكون الإجابة عن كل هذه الأسئلة أن المسألة نعرة كدابة وخلاص.

قد ترى أن حكاية الحاكم الماليزي هذه أتفه من أن تستحق كل هذا النقاش خاصة أنه لا يمكن لشخص ماليزي عاقل أن يورط نفسه في تحمّل مسئولية حكم بلد تعرض لكل هذه السنوات من الإفقار والفساد والنهب، أسمع صوتًا يقول: «ملعون أنت وهو.. حد يطول إنه يحكم مصر»، معلهش يا فندم.. هو الخسران والله، لكن على أي حال ليس المهم أن نجد ماليزيًّا يقبل حكم مصر، بل الأهم أن نسأل: هل المصريون الذين حكموا مصر عاملوا بسطاء شعبها كمصريين فعلًا أم كشعب من الأُجراء والعبيد، شعب لا يستحق أن يحيا حياة كريمة آدمية يطعم فيها من جوع ويأمن فيها من خوف؟ هل تشعر أنك كمواطن بسيط أو متوسط أو غير مسنود تنال كل حقوقك الدستورية والإنسانية في بلدك؟ هل تشعر بتكافؤ الفرص بينك وبين أبناء القادرين والمتنفذين؟ هل تشعر أن مَن يحكمك يحترم عقلك حقًّا؟ بماذا تشعر عندما تقرأ تصريحات رئيس بلدك ومساعديه وهم يحاولون أن يوهموك أن مصر تدخل الآن عهدًا جديدًا لا شيةَ فيه ويوجّهون سهام الانتقادات للسنوات الماضية؛ كأن الذي كان يحكم مصر شخص آخر غير مَن يحكمها الآن؟ رئيس الوزراء نظيف يقول إن مصر تشهد حرية حقيقية لم تكن تشهدها من قبل، بينما منذ فتحنا أعيننا على هذه الدنيا ونحن نسمع رئيسنا يتغنى بأنه عَيّشنا أزهى عصور الحريات، الوزراء الاقتصاديون يتحدثون عن سياسة اقتصادية جديدة تتلافى كل

أخطاء السياسات الاقتصادية الفاشلة التي سبق تنفيذها، وأحاديث أخرى عن الشفافية والإصلاح والتطور ومحاربة الفساد بوصفها اختراعات تم اكتشافها حديثًا ولم تكن لبانة تشدقت بها أفواه حكامنا طيلة ربع القرن المنصرم، هل يمكن أن يتعامل معنا أي ماليزي أو حتى موريشيوسي بهذا القدر من الاستحمار؟ حاشا وكلا، أزعم أن أي ماليزي أو موزمبيقي سيشعر بالرهبة لو أتيحت له فرصة حكم مصر، وسيحاول أن يكون على قدر البلد الذي يحكمه وعلى قد شعبه الذي لا يصح أبدًا أن يتم التعامل معه على أنه عبيط ذاهل عما حوله. ولكي لا أُتّهم بأنني أقول كلامًا مرسلًا، دعوني أسأل: عندما يقول ابن رئيسنا المحبوب وهو مش ماليزي بحمد الله معلقًا في حوار تلفزيوني على أحداث الخميسات الأسودات من سحل وقمع وتحرش وهتك أعراض: «لست سعيدًا بالعنف في المظاهرات، وعلى الجانبين أن يتداركا هذا الأمر»، الله.. يا سلاااام يا أستاذ جمال، فعلًا تستحق لقب أستاذ ورئيس لجنة عن جدارة والله، إذن كل ما حدث من عنف مروع كان سببه أن الجانبين لم يتداركا «هذا الأمر» من عبد الرحيم عمرو. يعني تلك السيدة الطاعنة في السن والتي انكشفت عورتها أمام العالم كله وهي تقاد كأنها ذبيحة إلى البوكس، كان يجب أن تتدارك الأمر وترتدي بنطلونًا محكم الغلق قبل أن تنزل إلى المظاهرة لكي لا تُحمّل قوات الأمن وزر تعريتها بهذا الشكل. وذلك الشاب ذو التي شيرت الأحمر الذي عدموه العافية واتضح أنه طالب في هندسة مدني قسم خرسانة كما بعث لي أحد أصدقائه كان يجب أن يتدارك الأمر ويستفيد من تجربته في دراسة الخرسانة فيتوقف عن مقاومة من يعتدون

عليه لأن قلوبهم كالخرسانة أو أشد قسوة فيخلع لهم التي شيرت من تلقاء نفسه ويذهب إلى البوكس دون أدنى مقاومة. والناشط محمد الشرقاوي يا عيني عليه كان يجب أن يتدارك الأمر فلا يعلن عما حدث له من هتك عرض لأننا شعب شرقي لا يقبل خدش الحياء والواد مستقبله قدامه وفيها إيه لما إخوانه في الوطن يهتكوا عرضه، مش أحسن ما يعملها حد ماليزي.

بلاش.. خد عندك عندما يقول الدكتور أحمد نظيف وطويل ـ وهو أيضًا ليس ماليزيًّا بحمد الله ـ إن قوات الأمن كانت ترد على الاعتداء الواقع عليها، وإنه لا يعقل أن يعتدي عليها ناشطو حركة كفاية وتقف مكتوفة العصي الكهربائية دون أن تحرك أقدامها أو بلطجيتها، بالطبع نحن نعلم أن حركة كفاية لا تقبل أبدًا في عضويتها إلا الحاصلين على دورات في الفنون القتالية والقادرين على استخدام الأسلحة البيضاء من أمثال جورج إسحاق ومحمد عبد القدوس وعبد الحليم قنديل وهاني عنان وعبد الوهاب المسيري وأبو العلا ماضي وغيرهم من الذين ترتعد فرائص أفراد قوات مكافحة الشغب عند رؤيتهم لما يُعرف عنهم من سرعة في الأداء وفتك في المعارضة.

لا أريد أن أفيض في ذكر أمثلة تثبت أن حكامنا الذين ليسوا ماليزيين يتعاملون معنا على أننا مصابون بالبله المنغولي أو مرضى بالتوحد الذي يجعلنا والعياذ بالله ذاهلين عما حولنا، وهنا نأتي ختامًا إلى سؤال الحلقة الذي ليس عليه أي جائزة للأسف الشديد: هل أنت موافق على أن يحكمك حاكم ظالم مستبد فاسد يكذب

عليك ويسرق عمرك ويحرمك من فرصتك في التطور طالما لم يكن ماليزيًّا؟! فكر بضمير وأرسل إجابتك إلى مقر مجلس الوزراء الذي ربما كان المضحك أن أول مَن رأَسَه وهو نوبار باشا لم يكن ماليزيًّا تمامًا كما أنه لم يكن أيضًا مصريًّا. لا تتعجب فإنها إرادة الله.

## عن المناطق المُظلمة الرطبة أحدثكم

لله الحمد والمنة أن خطيب جامعنا حفظه الله لم يتخذ ذلك الموقف الغريب الذي أخذه بعض خطباء المساجد المصرية بإعلانهم حرمة مساندة حزب الله بوصفه حزبًا شيعيًّا كافرًا، إذ لما كان قد سلم من يدي وأيدي أصدقائي المصلين في جامعنا، لا أقول إن فضيلته يتخذ مواقفه بناء على توقعاته لرد فعل المصلين، حاشا لله، فهو أشجع من أن يكون كذلك، والدليل أنه قرر وهو يرى الدنيا تضرب تقلب في فلسطين ولبنان أن يخصص خطبة الجمعة للحديث عن أهمية النظافة في الإسلام وخصوصًا حلق شعر العانة مؤكدًا بنص العبارة أن: «حكمة الشارع في وجوب حلق شعر العانة تتمثل في إدراك الشرع لخطورة ترك المناطق المظلمة الرطبة مثل تلك المنطقة دون نظافة»، فليبتلني الله إن كنت أتبلى عليه، أقسم لكم إنني كدت أصاب بشلل الأطفال والثلاثي لا قدر الله وأنا أطالع سحن المصلين حولي وهم يجلسون كأن على رءوسهم طيرًا مصابة بالأنفلونزا، لا تدري هل هم موتى أم أحياء، لم ألحظ على أحدهم تململًا أو استياء أو امتعاضًا لدرجة أنني خمنت أن الخطيب لم يختر هذا الموضوع من فراغ، بل

لعل لديه معلومات مؤكدة حول عدم اهتمام مصلين المنطقة بعدم حلق شعر العانة ونتف الإبط، وإلا لما استمع إليه الكل من حولي بكل هذا الاهتمام، قضيت الجزء الباقي من الخطبة وأنا أضع سيناريوهات مختلفة للانقضاض على الخطيب فوق منبره القصير ونتف شعر لحيته وأنا أسأله: «يا ابن المظلمة ماعندكوش تلفزيون في البيت.. ماشفتش الأطفال وهم بيطلعوا من تحت الأنقاض رافعين أيديهم إلى السماء شاكين خيانة الحُكّام العرب؟»، لكن كل مشاعري العدائية تبددت عندما لاحظت أن الخطيب كان يوجّه نظره وهو يخطب إلى شخص يرتدي بدلة صيفية تفوح منها الروائح الميري يستمع إلى الخطبة بوجه قاسي الملامح وقد بدا عليه وَعْثاء السفر ولا يعرفه منا أحد، لا أدري لماذا جعلَتْني قراءة النظرات المتبادلة بين الاثنين أتخيل أن الشخص المتفحص المتفرس في كلام الخطيب مكلف بمتابعة الخطبة التي لا أدري هل تم الاتفاق مسبقًا على أن تكون عن أهمية حلق المناطق المظلمة الرطبة، أم أن الخطيب تلقى تهديدًا بأنه سيتم الاهتمام بمناطقه المظلمة الرطبة إذا لم يَسمع الكلام فقرر من تلقاء نفسه أن يُبصّر الناس بأن يأخذوا بالهم من مناطقهم المظلمة الرطبة التي لم تعد مناطق محرمة في هذا الوطن كما بدا في أكثر من مناسبة خلال الأعوام الأخيرة.

أستغفر الله العظيم يا رب. أعرف أني منفعل وربما كان ينبغي ألا أكتب كلامًا كهذا وأنا تحت تأثير الانفعال، لكن ماذا أفعل وقد أصبحنا نعيش في عالم وسخ تتضاءل فيه كل يوم فرص أن نكون رجالًا ولو حتى بالكلام؟ هل تذكرون الأيام التي كنا نسخر فيها من خُطباء المساجد وهم يدعون أن ينصر الله الإسلام والمسلمين في

كل بلاد الدنيا، وأن يُهلك الله أعداء الدين ويفرق جمعهم ويشتت شملهم ويزلزل الأرض من تحت أقدامهم؟ هل تذكرون كيف كنا نعتبر ذلك تخاذلًا وضعفًا وعجزًا وسلبية وتواكلًا؟ مَن كان يتخيل أنه سيأتي على الناس زمان يحنّون فيها إلى دعوات مثل هذه ويتنشقون عليها في أيام عصيبة لم نعد نملك فيها سوى الدعاء كالولايا؟!

ولكي أخرج من نطاق جامعنا الضيق وأضع الأمر في نطاق أوسع، أعترف لكم أنني أدركت للمرة الأولى أهمية الدعاء كوسيلة تضامن وتعاطف وتأييد مع المستضعفين في الأرض والثائرين فيها أيضًا عندما سقطت بغداد قبل سنوات، في يوم الجمعة التالي لسقوطها المرير كنت أصلي في مسجد مزدحم بالمصلين بجوار معهد القلب في المهندسين، انتظرت أن تكون خطبة الجمعة نارية ملتهبة تنعي إلى المسلمين سقوط واحدة من حواضر الإسلام وتُذكّرهم بما عليهم عمله لكي لا تسقط بقية الحواضر واحدة تلو الأخرى، لكن الخطيب قرر أن تكون الخطبة عن الصدق أو الأمانة أو فضيلة أخرى من الفضائل التي كان واضحًا أنه ليس مؤمنًا بها بحق وإلا لأثّر كلامه فينا، كان جليًّا أنه نقل «البُقّين» اللذَيْن قالهما من أي كتاب خُطب منبرية وقرر أن يَبُخّهما في آذاننا، المهم مرت علينا الخطبة كما مرت آلاف قبلها ووصلنا إلى ـ آسف أن أقول ـ فقرة الدعاء، فقد صرنا بالفعل نتعامل معها كأنها فقرة نردد فيها كلمة «آمين» أحيانًا في غير موضعها ولو أخطأ الإمام ودعا علينا لرددنا آمين أيضًا دون وعي، أحيانًا أقول لنفسي: لا يُعقل أن نكون ندعو الله من قلوبنا حقًّا، إذ إننا لو دعوناه من قلوبنا لما بخل علينا بالإجابة أبدًا، يومها لم يترك الخطيب دعوة لمريض أو مسكين أو فقير أو طالب علم أو مديون أو

معسر إلا وقالها، لكنه حتى وصوله إلى ديباجة نهاية الخطبة لم ينطق بدعوة واحدة يسأل الله فيها أن يُصبّر إخواننا في العراق، أو يثبّتهم، أو يكون في عونهم، أو يُهلك غزاة بلادهم، كأنه كان يخطب في مسجد الجمعية الشرعية في الإسكيمو التي لم تصلها بعدُ أخبار سقوط العراق، يومها شعرت بالمهانة والمذلة وأنا أقف في الصف أُصلي إلى جوار غيري كأننا خُشب مسندة ليس بها أي روح، كأننا نؤدي حركات آلية نتخيل بها أننا نُبرّئ ذمتنا من الله عزوجل، انتظرت انتهاء الصلاة وأنا أنازع مشاعر الغضب والسخط والجموح وأستغفر الله في سري كل لحظة على ما يدور بخَلَدي من شطحات، بعد الصلاة هرعت إلى داخل المسجد وأنا أتوقع أن أرى شيخًا عجوزًا لعله يعيش في صومعة معزولة عن الدنيا لا يدري ما يحدث بها، لكنني وجدت أمامي شابًّا أزهريًّا مُعممًا لا يمكن بأي حال من الأحوال أن يكون مُغيبًا عما يحدث في الدنيا، لم أتردد في اقتحام تسبيحه وهو خافض الرأس لكي أسأله: «يا عم الشيخ ليه مادعيتش لإخواننا في العراق؟ ليه مادعيتش على الأمريكان والصهاينة؟ دعاء إيه! ليه ماخطبتش عن اللي المفروض نعمله واحنا بنشوف بلد عربي كان عاصمة الخلافة بيقع في إيدين الأمريكان؟»، يا ليته طأطأ رأسه إلى الأرض وهو يسمعني، يا ليته شعر بالخجل من كلامي، يا ليتني ما دخلت إلى المسجد وكلمته أساسًا، أقسم بالله إنه زغر لي زغرة هجام في خط المرج الخانكة وقال لي بكل تبجح: «والنبي يا أخ لو سمحت أنا عارف أنا باعمل إيه.. إحنا بننفذ تعليمات ومانقدرش نتخطاها»، ثم تركني ليقف ويبدأ في صلاة السُّنّة، وقفت مذهولًا وأنا أنظر إليه ثم أنظر إلى من كان موجودًا جوارنا من المصلين وهم ينظرون إليَّ

كأنني كائن فضائي نزل لتوّه من مركبته الفضائية ثم أشاحوا بوجوههم عني وبدأوا في الصلاة وترديد الأذكار.

لا أزعم أن هذا هو حال كل المساجد في مصر أو موقف كل الخُطباء، لكنني أزعم أنني أتحدث عن الغالبية العظمى من خُطباء المساجد، والذين أصبحوا يمثلون في رأيي دليلًا على مدى الانحطاط الذي وصلنا إليه، والذي حوّل بيوت الله إلى ثكنات أمنية ممنوعة من أن تَصدح بكلمة الحق، بل أصبحت في عهد الدكتور زقزوق تزقزق للحكام وتدعو لهم بصلاح الحال، وربما دعت قريبًا لأولادهم بأن ينالوا كل ما يتمنونه. لو كانت المساجد في بلادنا تؤدي دورها لما كان الشارع في بلادنا كما هي حاله الآن، شارع متخاذل ملهي متداعٍ مرخي، شارع يُشبه شوارعنا الأسفلتية المليئة بالحفر والمطبات والأتربة، يبدو كأنه منساق إلى قدر محتوم لا فكاك منه ولا سبيل لدفعه. لو كانت المساجد في بلادنا بها خطباء يؤمنون حقًّا بنصر الله وعدله وقوته لسلّمنا أمورنا لمَن هم أمثال حسن نصر الله.. وليس لمَن عليهم غضب الله.

الجمعة الماضية وأنا أستمع إلى خطيب المناطق المظلمة الرطبة تذكرت خُطباء جمعة كثيرين غيره في عشرات المساجد في طول مصر وعرضها، تذكرت ذلك الخطيب في جامع بشارع المحطة وهو يخصص نصف الخطبة للحديث عن حُسن معاملة العبيد والإماء، تذكرت زميلًا آخر له بجامع أوقاف بشارع وادي النيل وهو يتحدث بحرقة عن خطورة القاديانية على الإسلام والمسلمين، وكيف أنني بعد الخطبة سألت جارًا لي عن ما إذا كان يعرف القاديانية التي

يهاجمها الخطيب فقال لي وهو ينظر لي نظرات المتهم بالجهل: «إيه يا أستاذ؟ الكاديانية يعني الكوّادين والعياذ بالله»، تذكرت خطيب مسجد في شارع سعد زغلول وهو يتحدث بحرقة عن خطورة انتشار السحاق في المجتمع المسلم، وكيف فسدت جمعة الكثيرين عندما قال شاب معلقًا: «سحاق إيه بس! الراجل ده شاف فيلم سكس قبل ما ييجي يخطب؟!»، تذكرت خطيب جامع في طالبية فيصل وهو يقول بصوت جهور: «هل تذكرت الله يا أخي وأنت تشاهد ديمي مور؟»، فحمدنا الله أنه لم يحدد ديمي مور في أي فيلم، تذكرت خطيب جامع في الإسكندرية وهو ينعي إلى الناس غياب الحياء بين البنات و«كيف تخرج الفتاة إلى الشارع مرتدية بنطلونًا ضيقًا وفخذها كأنه فخذ الهوجان»، تذكرت مئات الخطب التي استمعت إليها في حياتي تدعو إلى التشدد والتطرف والتخلف وتركز على سفاسف الأمور، ولا تتخذ من المسجد منبرًا للحرية والعلم والعقل، تذكرت كل ذلك ولم أعد أدري هل أضحك كما كنت أضحك عادة أم أبكي هذه المرة أم أفر من المسجد فرار المكلوم المثقل بالجراح، لكن إلى أين يفر الإنسان وهو في بيت الله الذي أصبح مكتوبًا عليه بحكم تعليمات الأمن والوزارة أن يتحول هو الآخر إلى عبد للمأمور ولا حول ولا قوة إلا بالله.

بعد خطبة شعر العانة بيوم شاهدت في التلفزيون سيدة جنوبية تشبه أمهاتنا جميعًا تلوح بعلامة النصر للمقاتل عباس ناصر مراسل قناة الجزيرة (الذي أَعِده أنني سأُقبّل جبينه فور أن أراه على بطولته في نقل الحقيقة بحرقة وشجن وهمّ وطني ما يتلم) سألها عن رأيها في موقف الحكومات العربية فقالت دون تفكير وهي تسير مهرولة

ربما لتلحق بجنازة أو سيارة إسعاف: «العرب وسخين»، ثم تركته ومشت، لم تذع جملتها بعد ذلك في نفس اليوم ولن تذاع ثانية بالتأكيد، ليس لأن إدارة قناة الجزيرة تخاف على مشاعر العرب من هذه الجملة القاسية، لكن لأن إدارة قناة الجزيرة تعلم أنه لا يصلح أن نحكم على العرب كلهم بجملة تُطلقها سيدة محبطة مخذولة، خاصة أن أي عربي من مسقط إلى تطوان يعلم أننا أمة تهتم بنظافتها جيدًا خصوصًا نظافة المناطق المظلمة الرطبة.

آه يا إله الكون. لو كنت شيخًا يَستمع إليه الناس لأصدرت فتوى بحرمة الصلاة خلف الشيخ الذي لا يدعو إلى نصرة المقاومة اللبنانية والفلسطينية ولا يستمطر اللعنات على الصهاينة والأمريكان والمتواطئين معهم من حُكّام المناطق المظلمة الرطبة، لكنني لست كذلك، ولأنني يئست من وجود شيخ يخاف الله ويعلم أنه سيُسأل على عدم إنكاره للمنكر وخوفه ليس من الله عز وجل.. بل من مخلوقات ضعيفة مهما بدت قوية ومؤذية، فقد قررت أن أقاطع خطبة الجمعة وأكتفي بصلاة الجمعة حتى أعثر على مسجد يعتلي منبره خطيب لا تملأ رأسه المناطق المظلمة الرطبة الخائفة. قوموا إلى حياتكم يرحمكم الله.

## خمسة ملايين فرصة تحرُّش

سألني صديقي المتوجس خيفة وهو يشير إلى العنوان الرئيسي الذي نشرته الأهرام قائلًا: «يا نهار إسود.. هل هي مجرد صدفة؟»، فقلت له وأنا في حيرة حقيقية من أمري: «يا نهار إسود.. الله أعلم».

كان ذلك في اليوم التالي الذي كانت الصحف المستقلة ومواقع الإنترنت تجأر بالشكوى من فضيحة التحرش الجنسي الجماعي التي شهدها شارع طلعت حرب في وسط البلد الذي ساب على مرأى ومسمع من قوات الأمن التي أصيبت على ما يبدو بعمى ألوان جعلها لا ترى في وسط البلد سوى اللون الأصفر؛ لون ملصقات حركة كفاية. أما عنوان الأهرام فقد كان كالآتي: «تقنين حالات وضع اليد على أملاك الدولة بالاتفاق المباشر بين الحكومة والمواطنين». أو على حد تعبير صديقي المتوجس خيفة: «أهو كله وضع يد».

قد ترى صديقي مغاليًا في ربطه بين حالات وضع اليد على بنات وسط البلد دون مساءلة أو حساب، وبين حالات وضع اليد على أملاك الدولة بعد ما تمت تسميته زورًا وبهتانًا بالاتفاق المباشر بين

الحكومة والمواطنين، وقد تكون غير متوجس خيفة فترى أن ما حدث ليس بالفعل سوى مظهر من مظاهر سياسة جديدة نتواطأ جميعًا على عدم مواجهتها، وهي سياسة غضّ الطرف عن فساد هنا وهناك عملًا بأغنية ريكو الشهيرة: «خلي الشعب يعيش».

يحدث ذلك عندما تدير الحكومة ظهرها وتعمل نفسها مش شايفة وهي ترى موظفيها ومنتسبيها في جميع مواقع الإنتاج - إذا صح أن هناك إنتاجًا - يرتشون عيانًا بيانًا لإنجاز معاملات المواطنين على أساس أن تلك الرشاوى مُسكّن اجتماعي لا مندوحة عن حدوثه في ظل العجز الفاضح بين ما يقبضه الموظف وبين ما يجب أن ينفقه. يحدث أيضًا في تفصيلة قد تبدو صغيرة مثل التطنيش المتعمد على المهازل التي يرتكبها سائقو الميكروباصات في شوارع مصر من باب أن مواجهتهم بحسم ستخلق أزمات أمنية لا حصر لها بعد أن صارت الميكروباصات منفذًا مهمًّا لنقل الركاب. يحدث في السماح باندلاع ظاهرة التسوّل بشكل لم تعهده مصر في تاريخها إلى حد أصبحت مهنة التسول بارتداء بدل عمال النظافة الأكثر شعبية في مصر الآن وصار لها بيزنس ومافيا وقريبًا ربما شهدنا مسئولًا كبيرًا يفتتح مصنعًا لبدل عمال النظافة باعتبارها الأكثر مبيعًا وانتشارًا. يحدث ذلك أيضًا في انتشار وتغوّل ظاهرة البلطجة في الأحياء الشعبية والعشوائية بصورة لا يمكن أن تصدق أنها تحدث بعيدًا عن سمع وبصر بعض مسئولي الأجهزة الذين يستخدمون هؤلاء البلطجية فيما يتخيلونه فرضًا لذراع الدولة الحديدية التي لم يَعُد عسكري الأمن المركزي سيئ التغذية قادرًا على فرضها. يحدث ذلك - واسمحوا لي أن أكون قاسيًا وأنا أقول هذا - في غض الطرف تمامًا عن نشاط

الجمعيات الأهلية التي تعمل في مجال جمع التبرعات ومساعدة الناس حتى تحوّلنا إلى شعب يلم لبعضه بينما هو يعيش في بلد من أغنى بلاد الدنيا، سيهب ألف من يشتمني لأنني أقول ذلك ويتهمني بعدم حب الخير للناس، مع أنني أزعم أن الخير يمكن أن يعم كل الناس في كل المواسم دون أن يكون في صورة إحسان أو هبات لو تمت إدارة عادلة لموارد المجتمع دون فساد أو سوء تخطيط أو اختلال في الإنفاق يجعلنا ننفق على الأمن أكثر مما ننفق على المَم.

يطول هنا تعداد تفاصيل «سَيَبَان» الأحوال في مصر والتعديد عليها، فأنا وأنت نعيشه ونشهده كل يوم، وهو سَيَبَان لست على استعداد لأن أفترض أنه يحدث عفوًا وارتجالًا ودون تخطيط، بل إنني أزعم أنه سَيَبَان يحدث عمدًا يفترض مَن يسمح به أنه جهنمي الذكاء لأنه يترك منافذ للتنفيس للشعب لكي يسلّك كل واحد نفسه بمعرفته ولا تصل الأحوال إلى درجة الاحتقان الكامل الذي قد يؤدي إلى الانفجار الذي لا يريده بالطبع مَن ينتفعون مِن بقاء الأوضاع على ما هي عليه.

لكنني لا أحب أنا ولا غيري ممن لهم ولايا يخافون عليهم أن الانفلات سيصل إلى حد أن يكون شغل الأمن الشاغل هو التربص بالمعارضين والمتظاهرين وعدم الضرب بيد من حديد على مَن يهدر كرامة أنثى، لا أتصور أن يتم اعتقال غير قانوني على شابّ لأنه مارس حقه الديمقراطي في المعارضة فيتم سحله ومرمطته، بينما يعامل الأمن نفسه بمنتهى الرقة شابًّا يمد يده على ست في أي شارع من شوارع مصر برغم أنه يرتكب مخالفة صريحة يتشدد القانون في إيقاع العقوبة على مَن يرتكبها نظريًّا بالطبع.

لقد قرأنا تصريحات طويلة عريضة ومخجلة أيضًا لمصادر أمنية تنفي فيه ما حدث وتصفه بأنه مبالغات وتهويلات من مواقع إنترنت، بينما يعلم مَن أصدر هذه التصريحات أنه لا توجد مبالغات ولا نيلات، وأن كل ما تم ذكره حقيقي وواقعي للأسف الشديد، والدليل أن مراسلًا نشيطًا في برنامج القاهرة اليوم أظن أن اسمه أيمن فايد أجرى لقاءات في الشارع مع شهود عيان من أصحاب المحلات المجاورة على ما حدث أكدوا وقوعه بالمللي، وكان الأوْلَى بدلًا من أن ينشغل الأمن بإقناع أصحاب محلات أن ينفوا ما حدث أن يذهب إلى الذين شهدوا على ما حدث ويشكرهم على شهامتهم في محاولة إنقاذ الفتيات ويستوضح منهم تفاصيل لما حدث، لقد جاءت الشهادات التي أذاعها البرنامج قاطعة ومؤسفة، وعلى رأسها شهادة لحارس أمن خاص وشهادته مسجلة في البرنامج قال فيها إنه تم إبلاغ قسم قصر النيل ولم يتحرك أحد منه، وهي شهادة تتسق مع ما جاء في المدوّنات التي شهد كُتّابها على الوقائع بالصدفة البحتة.

سيقول قائل: وماذا تنتظر من أجهزة أمنية مارست لأول مرة في تاريخ مصر ظاهرة التحرش العلني في يوم الاستفتاء الأسود وما تلاه من تحرشات، فضلًا عن أنها كانت تمارسه في السر قبل ذلك في الانتخابات بأيدٍ نسائية؟ وهنا أقول إنني على العكس أنتظر الكثير؛ فأنا لم ولن أتعامل مع أجهزة الأمن على أنها مملوكة للحزب الوطني، حتى لو اعتقد بعض قادتها أنها كذلك، فأجهزة الأمن ملك لمصر، ومليئة بالشرفاء والأحرار الذين لا يرضيهم أبدًا أن يُهتك عرض امرأة في مصر؛ لأنهم يعلمون أن ذلك لو حدث فإنه لا أحد من نسائنا

جميعًا كمصريين حُكامًا ومحكومين تحت الحماية، طالما كانت تمشي في الشارع دون حراسة.

لقد نشرتُ عقب كأس الأمم الإفريقية في «قلمين» رسالة مؤلمة من فتاة تعرضت للتحرش الجسدي العنيف في قلب المهندسين عندما تصورت أن بإمكانها أن تمارس حقها في السير في الشارع بكل احترام، وكنت أتصور أن الدنيا ستنقلب رأسًا على عقب، لكن شيئًا لم يحدث وتعامل الكل مع شرف هذه البنت المنتهك على أنه رخيص لا يخص أحدًا غيرها، مع أنه يخص كل فرد فينا، وها هي الوقائع تعود بعد أشهر قليلة لتصبح هوجة من التحرش المجنون في وسط البلد، بل وفي قلب المهندسين كما قال الفنان عزت أبو عوف في شهادة له ببرنامج القاهرة اليوم، يعني أصبح التحرش همًّا قوميًّا لدى الزعران من شبابنا على اختلاف طبقاتهم. وبينما وصلتني رسائل عقب نشر الرسالة الأولى تلوم الفتاة لأنها خرجت بالشارع في الزحمة، وأخرى تقول إن البنات زودوها قوي، ها هي المهزلة التي حدثت تُثبت أن التحرش لم يفلت لا محجبة ولا سافرة، وأن هذا المنطق الأعور الذي نُفكر به طيلة الوقت يجب أن يتوقف، فنحن لسنا آلهة لكي نحاسب مَن تتحجب ومن تتمكيج، وإذا كنا سنترك عقاب المحجبة حجابًا مشخلعًا أو المتمكيجة مكياجًا متهتكًا يتم بأصابع أراذلنا، فلماذا لا نكون رجالًا بالمرة ونتحرش بمَن يسرقون ثرواتنا وينهبون بلادنا ويبيعونها على عينك يا تاجر.

إنني لا زلت على أمل بأن تُغير الأجهزة الأمنية من لهجة خطابها التي علّقت بها على الأحداث الماضية، وأن تُطمئِن كل مصري على

أهل بيته، وتُثبت للناس أن القبض على المتحرشين بالنساء سيكون أهم لديها من القبض على الناشطين السياسيين، وأن ما ارتكبه بعض أفرادها بحق الصحفيات والمحاميات كان جريمة لا بد أن تتطهر منها بتوقيع أقصى العقوبة على مَن ارتكبها، لكي لا يتصور أحد أن التحرش بالنساء قد دخل إلى قائمة الجرائم والمخالفات التي تغض الدولة الطرف عنها. كما أنني لا زلت على أمل أن يدرك الناس في مصر جميعًا أن سكوتهم على ما حدث للصحفيات والناشطات السياسيات في العام الماضي هو الذي جعل نساء أخريات عُرضة للتحرش هذا العام، وسكوتهم على ما حدث هذا العام وبحثهم عن مبررات له سيجعل نساء أخريات عُرضة لتحرشات قادمة، وقد جاء التهديد النبوي قاطعًا ومخيفًا عندما قال إن الناس إذا لم يأخذوا على يد الظالم أوشك الله أن يَعُمَّهم بعقاب من عنده، والظالم هنا هو مَن يمارس التحرش ومَن يسكت عليه ومَن يُبرّره ومَن يتجاهله.

لا أظن أملي هذا تفاؤلًا ساذجًا بقدر ما هو رغبة إنسانية طبيعية في أن نشعر أننا نعيش في وطن لا في غابة، وأن لا نضحك على أنفسنا بأننا بخير وأخلاقنا لا تعاني من أي التهابات، وأن ما حدث وراءه قلة منحرفة مندسة، فالحقيقة أنه مهما كانت قلة أعداد مَن يمارسون هذا الفعل فإن عدم رؤيتهم مُشهّرًا بهم ومعاقبين على رءوس الأشهاد في كل شاشات التلفزيون تعني أن البرنامج الانتخابي للحزب الوطني عندما وعد بتوفير خمسة ملايين فرصة عمل، كان يعني توفير خمسة ملايين فرصة عمل فاضح. ولا حول ولا قوة إلا بالله.

## أقيلوا عَثْرَة أخيكم

عزيزي الأستاذ (...).. إليك حيث ترقد على فراش المرض.

أنا آسف.. من كل قلبي آسف.. على أننا أصبحنا نعيش في غابة لا يوجد فيها أي احترام لآدمية الإنسان أو كرامته أو خصوصيته. أنا آسف لأننا نعيش في بلد لا تصدر قرارات حظر النشر فيه إلا في قضايا الفساد. أنا آسف لأننا لم نَعُد بني آدمين.. أصبحنا وُحوشًا تتملكها الرغبة في التشفي في كل مَن يتعثر أو تصيبه غوائل الدهر.. أنا آسف لأننا نرى في مصيبة إنسان وأسرة وأولاد أمرًا يمكن أن يثير السخرية أو يصلح مادة لنكتة عن النضال والمناضلين.. أنا آسف لأننا لم نعد نرحم أحدًا ثم نسأل: لماذا لا يرحمنا الله؟!

هل تصدقني يا أستاذي لو قلت لك إنني بكيت من القهر عندما قرأت في صحيفة كنت أظنها محترمة عنوانًا حقيرًا يقول: «الدكتورة في أحضان عشيقها وزوجها يناضل في حركة كفاية»، لم أصدق أن هناك بشرًا يمكن أن يشمت هكذا في شخص لم يؤذ أحدًا، لم يظلم أحدًا، لم يَقُم بمذابح جماعية أو يسوق شعبًا بأكمله إلى الخراب، حتى

نشمت فيه عندما تصيبه محنة دون أن نتثبت من وقائع قضية ملتبسة، ودون أن نتذكر أنه يمكن لأي منا بسهولة أن يكون مكانك، وأنه كما يدين سيُدَان.. وأن مَن تتبعَ عورة مُسلم فضحه الله في عُقر داره.

سامحنا يا أستاذ... لأن لدينا صحافة قومية يقولون إنها محترمة تدّعي أنها تلبي حق القارئ في المعرفة.. بينما هي لا تنشر الحقيقة مطلقًا.. ترفض أن تنشر تصريحات بوش النارية بحق نظام الحكم لكنها تفرد لمأساتك صفحات شاسعة تحتوي على تفاصيل مخجلة لا أدري ما هي مصلحة أي أحد أن يعرفها. سيتشدقون بأنهم يُلبّون حق القارئ في أن يعرف كل شيء يمس الشخصية العامة.. لكنهم بالطبع لن يتكلموا لو حدث ربع ما حدث لك لأي مسئول كبير أو صاحب حظوة.. سيتم لمّ الموضوع في الخباثة وسيتحدثون عن أهمية احترام ميثاق الشرف الصحفي.. لأن هذا المسئول له ضهر وأنت ليس لك ضهر؛ ولذلك سيكون لدى صُحفنا الشجاعة لكي تشمت فيك وتفرج عليك الخلق بعد أن قامت بواجبها كاملًا في فضح فساد الكبار ومخازيهم وجرائمهم.

أنا متألم جدًّا من أجلك ياأستاذ... أشعر بألمك لأنه لا أدري لماذا ذكّرني بما حدث لي منذ سنوات عندما كنت أسير في شارع المنيل بجوار محطة أتوبيس مزدحمة بالمواطنين وتعثرت بفعل حفرة من حفر البنية الأساسية، سقطت وتمزقت أربطة رجلي، لم تمتد يد واحدة لتقيل عثرتي، بالعكس ضحك أغلب الواقفين كأنهم يرون مشهدًا كوميديًّا، في عقل بالهم أعجبهم مشهد أن يقع راجل طول بعرض على الأرض وتتبعثر أوراقه ويتحطم تليفونه المحمول، يومها

شعرت أن الاستبداد والفقر قتلا فينا أشياء كثيرة، شوّها فينا أشياء كثيرة، لكنني دائمًا كنت أراهن على فسحة الأمل التي تحدث عنها أبو الطيب المتنبي: «ما أضيق العيش لولا فسحة الأمل». ودائمًا ما كانت فسحة الأمل هذه تضيق، ضاقت أكثر عندما رأيت ذات مرة سيدة عجوزًا لا يتجاوز وزنها الثلاثين كيلو تبيع مناديل أمام محل عصير في ميدان فيني بالدقي، صدمتها سيارة شابّ من بتوع بابا وماما، كان يرجع بالسيارة إلى الخلف وهو يداعب صاحبته، سقطت السيدة وتكسرت نظارتها، ولم يفكر أحد في أن يتحرك ليمد إليها يدًا، لدرجة أن ذلك أذهلني وألجمني لثوانٍ عن مساعدتها، أخذت أتأمل في وجوه الناس، الكل يراقب ما يحدث بعجز بليد، حتى الشابّ نظر إليها وهي تقوم وتلملم المناديل وأجزاء النضارة، كأنه اطمأن أنها لم تمت بعد، وحينها قال لها: «مش تحاسبي يا حاجّة»، ثم انطلق مبتعدًا عن المكان، فقط هذا هو كل ما قاله وكل ما فعله، أفقت من ذهولي وتوجهت إليها، أخذت أواسيها وهي تبكي بحرقة، سألتها ما إذا كانت تتألم فقالت لي إنها تبكي لأنها ستضطر إلى إصلاح النضارة التي أصلحتها منذ ثلاثة أسابيع فقط، نظرت إلى النضارة كان جزآها ملتصقين ببلاستر، حاولت أن أمسك نفسي عن البكاء بصعوبة، أعطيتها ما فيه النصيب، ولفت نظري أنها أخذت مني ما أعطيته لها وهي تتلفت حولها في خوف، لم أفهم وقتها، أخذتْ تحكي لي كيف أنها تصرف على بنتها وأولادها الستة بعد رحيل والدهم في حادث سير، وأنها لا تسمح بخروج بنتها للعمل لأنها تتعرض للمضايقات بسبب كونها جميلة، ولذلك فهي تخرج للعمل برغم أنها على مشارف السبعين ولديها عدد من الأمراض، قبل أن أتركها

وبعد أن أخذت تليفونها وعنوانها لأوصي بها أهل الخير قالت لي بتردد: «والنبي يا بني لو جيت تاني وعايز تديني حاجة.. ابقى عدّي بالعربية لغاية ما أشوفك.. وبعدين اركن في الشارع اللي قدام ده.. وأنا هاجيلك». قلت لها مستغربًا: «ليه بس ياحاجّة؟»، ظننت أنها تعاني من مشاكل مع رجال الشرطة الذين حلوا كافة مشاكل مصر وعلى رأسها الفقراء باعة المناديل والباعة السرّيحة، قالت لي إنها تعاني مشاكل مع عمال المطعم القريب الذين يأخذون منها نصف ما تحصل عليه من الناس، فِرْدَة يعني، يومها شعرت بالفزع، وللحظة ندمت لأنني أَنجبت وأتيت بطفل إلى هذه الغابة التي نعيش فيها، لكن فسحة الأمل جعلتني أجدد أملي في الله.

عادت فسحة الأمل لتضيق وتختنق عندما رأيت مشاعر التشفّي الغريبة والمريرة التي سادت المجتمع المصري عندما سرت سيديهات الراقصة دينا فيه كالنار في الهشيم، وعندما رأيت مثقفين كبارًا وبعضهم يدّعون التدين يحرصون على مشاهدة هذه السيديهات باستمتاع ويتحدثون عن ما بها بتشفٍّ وسعادة، وعندما تُبدي لهم اعتراضك على هذا التشفّي المرير يقولون لك بمنتهى البساطة: «يا عم ما هي رقّاصة وعريانة طول الوقت.. جت علينا احنا!»، كأن كونها راقصة ينفي عنها كونها بني آدمة، لها حق أن نستر عورتها ولا نتشفى في مصيبة تمر بها. وبعد دينا توالت سيديهات وكليبات وفضائح تنتشر وتشيع في مجتمع يدّعي التدين طيلة الوقت ويرفع شعار العيب والحرام في مواجهة أي فيلم جريء أو رواية جريئة، لكنه يبحث بشغف عن أي فضيحة حقيقية، يتفرج عليها بشغف وهو يُحوقل ويُبسمل وينعي غياب الدين والأخلاق. كلما رأينا أحدًا يسقط ضحكنا من الأعماق

دون أن ندري أننا مُعرّضون لمثل هذا السقوط. دون أن نعلم أن أبرز ما يميزنا كبشر هو العاطفة. العاطفة التي تجعلنا نطبطب على كل مَن يسقط أو يتعثر أو تقهره الحياة. عندما حدث ما حدث لعبد الحليم قنديل ذُهلت لأنني وجدت مَن يتندر على الاعتداء الذي تعرض له.. وعندما تم هتك أعراض فتيات زي الورد في عُرس الديمقراطية يوم الأربعاء الماضي صُعقت لأن ذلك تحوّل إلى مدعاة للسخرية لدى كثيرين ممن أعرف، ناهيك عن الآخرين الذين تواطئوا بالصمت وعدم التنديد بما حدث، متخيلين أن ذلك يعفيهم من الاشتراك في الجريمة. صدقني كلما أشعر أننا أصبحنا أقل تعاطفًا مع ضعف غيرنا من البشر ومع عثراتهم كلما ضاقت فسحة الأمل، وكلما شعرت كم كان الإمام محمد عبده عندما قال بعد عودته من الغرب إنه رأى هناك مسلمين بلا إسلام وعاد إلى إسلام بلا مسلمين.

عندما أقرأ ما يُنشر عنك أتذكر سيدنا رسول الله وهو ينهر خالد بن الوليد لأنه سبّ الغامدية التي كان يُقام عليها حد الزنا لأن شيئًا من دمها أصاب ثيابه فسبّها لينهره الرسول بقوة، وأتذكره صلى الله عليه وسلم وهو ينهر الصحابة لأنهم أخذوا يعايرون رجلًا استحق أن يُقام عليه الحد ليقول لهم عبارته الجليلة: «أقيلوا عَثْرة أخيكم». هذا أمر صريح يخص شخصًا مذنبًا اعترف بخطئه، فما بالنا بشخص محترم مثلك لا يدري أحد طبيعة ما حدث له بالضبط؟!

سامحنا ياعزيزي؛ لأننا لم نُقِل عَثْرتك.

## بلطجية سبع نجوم

حدث هذا المشهد أمام عينيّ أول أمس في السابعة مساءً، كنت قد عبرت بسيارتي كوبري قصر النيل متجهًا نحو كوبري الجلاء، أمام دار الأوبرا لاحظت أن سيارة مرسيدس تعود إلى الخلف في قلب الشارع غير مبالية بمن يأتي وراءها، يضع قائد السيارة سيجارة في فمه ويتصرف كأنه راعي بقر وحيد راسمًا على فمه ابتسامة غير مُبالية بكل ما يتلقاه من شتائم قائدي السيارات التي كادت ترتطم به. أعلم أنك لا تستغرب ما أرويه، لأنه ليس مشهدًا غريبًا في مصر على الأقل منذ عشرين عامًا، لكن الجديد أننا عندما نشاهده هذه الأيام نعود إلى البيت لنلعن الثورة التي خربت البلد، فمن أخلاقيات الثورة لدينا أن يرمي كل إنسان منا فضلاته على الثورة ثم يشتم الثورة، عادتنا ولن نشتريها! من زمان وكلٌّ منا يبذل في مجاله وبطريقته مجهودًا مضنيًا لتخريب البلد ثم يصرخ مُخليًا مسئوليته «خربانة خربانة».

نظرت إلى الأمام فوجدت زحام الطريق معقولًا لا يدعو لأن يحاول أحد تفاديه بهذا الشكل حتى لو كان قائد المرسيدس حاملًا

وفاجأه الطلق أو داهمته العادة الشهرية وقرر الذهاب إلى أقرب صيدلية، تقدمت إلى الأمام قليلًا ووقفت ضمن طابور السيارات التي تتحرك ببطء صوب كوبري الجلاء، عندما وصلنا إلى مطلع الكوبري بدا أن الفرج قد اقترب وأننا سنعبُر إشارته سريعًا، فجأة قررتْ سيارتان بي إم وشيروكي قادمتان من الاتجاه المعاكس الأكثر ازدحامًا أن تقطعا الكوبري بشكل مخالف لتستغلا الانفراجة التي بدت في اتجاهنا، ينبغي هنا أن أشهد لهذين الشابّين بالصفاقة أولًا لتجرّؤهما على فِعلٍ كهذا في ظل وجود عدد من ضباط المرور، وبالمهارة ثانيًا لأن الطريقة التي استدارا بها في الكوبري الضيق المزدحم تنبئ عن مهارة عالية في القيادة، ولولا أن المكان ضيق لربما كانا قد قاما بحركات رائعة من تلك النوعية التي تجعل المشاة يُصدرون من أعماقهم أصواتًا إسكندرانية مميزة تصحبها الجملة الفولكلورية الشهيرة: «تلاقي أمك جايباها لك»، وهي جملة لا تحمل تمييزًا ضد المرأة كما يظن بعض الغافلين، بل تحمل إشارة قبيحة إلى مهنة الأم التي جلبت لابنها سيارة كهذه، وهو ما يحيلنا إلى عمنا صلاح عبد الصبور وصرخته الحزينة عن نوع آخر من النساء: «في بلد تتعرى فيه المرأة كي تأكل.. لا يوجد مستقبل».

ما إن انتهى الشابان من عبور الكوبري حتى كانت الإشارة قد أقفلت مجددًا، وعُدنا جميعًا لانتظار الفرج، من قلب الميدان جاء مساعد شرطة شابّ بملامح جادة، اقترب من سواق البي إم التي كانت في المقدمة إلى جوار سيارتي، طلب من قائدها أن يُنزل زجاج السيارة مُشيرًا له بيده أن يُخرج الرُّخص، نظر إليه الشاب باستهانة وأشاح بيده، لو كنت مكان مساعد الشرطة لقمت بتعديل

إشارة يدي لتتخذ وضعًا آخر يحمل معنًى بليغًا يتناسب مع نظرات الاحتقار التي وجّهها له، لكن المساعد بكل أدب أخرج تليفونه وقام بإجراء اتصال لم أفهم طبيعته إلا عندما رأيت ضابطًا شابًّا قادمًا من نهاية الكوبري، أشار له المساعد إلى السيارة وهو يحكي له ما حدث، ثم اتجه إلى قائد الشيروكي الذي كان يراقب المشهد منذ بدايته باستخفاف، لكنه مع مجيء الضابط قرر أن يُغيّر تعامله، فأخرج رخصتيه للمساعد فور أن طلبهما، عاد المساعد إلى ضابطه منتصرًا يحمل الرخصتين، بينما كان الضابط الشاب قد أخذ لتوّه الرخصتين من قائد البي إم الذي انفجر فجأة صارخًا في المساعد «مش تعلموا البني آدم ده إزاي يتعامل مع الناس»، نظر له المساعد مستغربًا ولم يُعلّق، رد الضابط بهدوء: «هو عمل لحضرتك إيه؟»، فقال صارخًا: «بسلامته داخل بيشاور لي بإيده وهو بيزعق لي: طلع رخصك.. طريقة زبالة.. باين عليه مش محترم»، المساعد رد بهدوء استغربته: «على فكرة حضرتك بتكذب»، وتركه ومشى، فانفجر الشاب بكل عصبية وهو ينزل من سيارته: «أنا كذاب ده أنت راجل وسخ وأنا هاضربك بالجزمة»، وبدأ يَخرج من فمه تشكيل عصابي من الألفاظ الواطئة، والضابط ـ الذي كنت أتمنى أن تتيح لي الفرصة معرفة اسمه لكي أحييه على احترافه ومهنيته ـ استمر في مطالعة الرخص المسحوبة، ثم نظر إلى الشاب قائلًا بهدوء: «أنت كده بقيت جدع؟! طيب اتفضل اركن عشان تاخد الوصل»، وأشار إلى قائدَي السيارتين أن يستمرا في السير ليركنا بعد عبور الكوبري، ثم مشى تاركًا قائد البي إم يواصل تهديداته للمساعد بأنه لن يرحمه أبدًا وهيعرّفه مقامه كويس، بالطبع لو

كان ذلك الشاب سائق ميكروباص لنزلنا جميعًا لكي نؤدبه لأنه بلطجي أشر، لكنه كان يركب «عربية جابتها له أمه»؛ ولذلك وقفنا نتفرج عليه مكتفين بمصمصة الشفاة.

قد يبدو لك الموقف تافهًا وعاديًّا، لكنني لا أدري لماذا لم أجده كذلك أبدًا، أصدقائي يعرفون أنني في مواقف كهذه، أنزل عادة لألتحم بأبطال المشهد بشكل تراجيدي مُطبقًا مبادئ المقاومة الشعبية كما أؤمن بها، لكنني هذه المرة تجمدت في مكاني، وعندما وقع نظر قائد البي إم عليّ وهو يستعد للعودة خلف مقود سيارته ارتسمتْ على وجهه ملامح استغراب شديد، فقد رآني أبكي بحرقة، هو بالتأكيد ظنني رجلًا مجنونًا يبكي حزنًا على هيبة الشرطة، لكنني في الواقع كنت أبكي لسبب آخر لن يخطر على باله أبدًا، بكيت لأنني عُدت بذاكرتي ووجداني ومشاعري إلى يوم ٢٨ من يناير عندما كنت أقف على الكوبري نفسه في البقعة نفسها مع آلاف من المصريين نحاول التقاط أنفاسنا التي خنقها الغاز الأمريكي المسيل للدموع، ونرى بين الحين والآخر شبابًا يهرولون قادمين من اتجاه كوبري قصر النيل حاملين شخصًا تسيل منه الدماء، والكل يُكبّر ويهتف بحياة مصر، وفي جزء من الكوبري وقف ثلاثة من العساكر أفلتوا من سيارة أمن مركزي محترقة وقد خلعوا ملابسهم العلوية، وأخذوا يبكون خائفين من أن يفتك بهم الناس، والناس يحتضنونهم ويقولون لهم: «أنتو ولادنا»، ويرفعون أيديهم إلى الأعلى طالبين منهم أن يهتفوا: «الشعب يريد إسقاط النظام»، والجنود الخائفون يُتمتمون بالهتاف لإثبات حُسن نيتهم قبل أن يهتفوا بحرقة ضد مبارك والعادلي، والكوبري يضجّ بمن عليه من بشر مصممين على الزحف

إلى التحرير غير مبالين بالموت، كانوا جميعًا يحلمون بمصير أفضل لبلادهم؛ ولذلك كانوا يُضحّون من أجلها بأغلى ما لديهم؛ بحياتهم، بالتأكيد لم يكن بينهم سائق البي إم ولا سائق الشيروكي ولا الضابط ولا أغلب المتفرجين من المارة والركاب على اختلاف سياراتهم، يومها كان أغلبهم بالتأكيد يتفرجون أيضًا وهم يلعنون العيال التي ستخرب البلد، وهم للأسف اليوم يواصلون الفرجة وهم يلعنون الثورة التي خربت البلد.

يا عيني على الذين لم يكتفوا بالفرجة، يا عيني على الشُّهدا يا مصر.

## يَومٌ تَشخَصُ فيهِ الأبصار

الآن فقط تكتسب خواتيم سورة «إبراهيم» معنًى جديدًا، كنتُ أفِرُّ إليها كلما داهمتني الأسئلة المُرْبِكة عن الحكمة الإلهية التي تَكمُن وراء سيادة الظلم وتَجَبُّر الظالمين وسَطوة الطغاة وخنوع البشر، كنت آنس إليها في وحشتي وأجد فيها أملًا بوعد إلهي أثق أنه سيتحقق ذات يوم، لا أدري متى ولا أين، ربما في هذه الأرض أو في غيرها، ربما بعد أن أموت أنا وأبنائي وأحفادي، وربما بعد أن تموت أجيال متعاقبة لن ترى أثناء حياتها بصيص أمل أو نقطة نور.

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾ وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ وَقَدْ مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴾.

أمَا وقد عشت حتى شهدت تلك الآيات الكريمة وهي تنبعث في الشوارع والميادين والحواري، بعد أن أيقن ملايين من عباد الله أنه لن يُغَيِّر ما بهم حتى يُغَيِّروا ما بأنفسهم، فغيّروا خوفهم وجبنهم وسلبيتهم ونبذوا تعصبهم وطائفيتهم وجمودهم، أمَا وقد عشت حتى رأيت أمثال الله جل وعلا وهي تُضرب لنا فنراها رأي العين، فاللهم لك الحمد حمدًا يوافي نعمك ويكافئ مزيدك، نحمدك ونشكر فضلك حتى تُتم نعمتك علينا، ونسألك العفو عما قَصّرنا فيه وهو كثير، ونسألك العون على إكمال طريقنا وهو طويل، لك الحمد أن جعلتنا نشهد ثورة غيرت في نفوسنا كل شيء، جعلتنا نشعر ونحن نقرأ كتابك الكريم بطعم جديد، بمعانٍ جديدة تتنزل على نفوسنا بردًا وسلامًا، أصبحنا يا مولانا ونحن نقرأ قصص عاد وثمود وقوم إبراهيم وفرعون وأصحاب الأيكة نشعر أن كرمك علينا أكبر بكثير؛ فأنت جعلت عقاب الظالمين يأتي بأيدينا دون أن تنزل به معجزة من السماء أو خارقة تخسف الأرض، جعلتنا نُدرك أننا قادرون بإذنك على أن نُحَرِّك الكون كله بقوة الإرادة الإنسانية التي وضعت سرَّها فينا فعطّلناها وتركنا غيرنا يستلبها بقوة السلطة حينًا وباسم الدين أحيانًا.

قبل أن أُحدّثك عن الأدعية دعني أُذكّرك وأُذكّر نفسي، دعاؤك تملكه أنت وحدك، هو سر بينك وبين الله؛ ولذلك لا تجبني إذا سألتك: كيف جربت إحساس الدعاء في العشر الأواخر هذا العام؟ هل وجدته مختلفًا عن كل ما سبقه من سنين؟ أنا وجدته كذلك، هناك فارق كبيييير بين الدعاء لمصر بأن يُخلّصها الله من الظَّلَمة والطُّغَاة، وبين أن تدعو لها بأن يُعينها الله على إكمال طريق النصر حتى منتهاه، نعم دعوت على حسني مبارك وعلى أعوانه وأذنابه، لكنهم لم يأخذوا

نفس الحيز الذي كانوا يأخذونه مني في الدعاء ككل عام، ما أخذ مني وقتًا أطول كان الدعاء لمَن يُناصرون مبارك بإخلاص وصدق ظنًّا منهم أنهم بذلك يُناصرون قِيم الوفاء والجدعنة والوطنية، دعوت الله لهم أن يُعينَهم على خلاص أنفسهم من مناصرة ظالم مثله قبل أن يحيق بهم ظلم يجعلهم يُدركون كم هو قاسٍ ومرير أن يتعرض الإنسان للظلم.

أتذكر ليلة القدر في رمضان الماضي، نعم أظن أنني شهدتها والله أعلم، كانت ليلة السابع والعشرين من رمضان، حضرتُها في جامع سيدنا أبي أيوب الأنصاري في إستانبول، أتمنى لك أن تَنْعم بذلك الخشوع الرائع الذي يمكن أن تشعر به وسط مائة ألف من الناس يسألون الله العفو والمغفرة والصحة والستر بلسان أعجمي يجاهد أن يكون عربيًّا، وجدت نفسي بعد طول تجوال في ركن ملاصق لساحة المسجد يعجّ بالعرب المقيمين في إستانبول، كان المشهد مهيبًا: ثمة رجل يؤم عددًا من المصلين، يرفع صوته جهيرًا بالدعاء إلى الله، ومن خلفه يُؤمِّن أناس بعضهم لا تفهم جوارحهم ما يدعو به لكن وجدانهم يفهمه جيدًا، عندما أتذكر كيف دعا ليلتها وهو يجأر بالشكوى إلى الله أن يُهلِك حُكّام العرب الظالمين أسأل نفسي الآن ماذا كانت جنسيته؟ وهل نال ما تمناه في بلاده؟ وهل كان بيننا يومها توانسة وليبيون نالوا ما نِلناه؟ وكم جيلًا فَنَت أعماره في هذه الأمة المنكوبة قبل أن يرى دعواته بهلاك الظالمين وهي تبدأ في التحقق. أرجو أن تتذكر ذلك كفّاك وأنت تناجي ربك في ليلة العيد التي يُستجاب فيها الدعاء كما وعدنا الله، ادعُ لليائسين والساخطين بأن يُنير الله قلوبهم بنور الأمل، بأن يجعلهم يتذكرون كيف كُنا في يوم

الخامس والعشرين من يناير لا يحلم أحد منا بأن يرى مصر وهي تتغير إلى الأبد بعدها فقط بثلاثة أيام، بأن يلهمهم الإيمان بقدرة الإنسان على صُنع المعجزات، بأن يجعلهم يؤمنون بأنفسهم أكثر، ففي إيمان الإنسان بقدرته يكمن سرّ الإيمان بالله، هكذا كنت أظن، وهكذا أصبحت أعتقد الآن، بعد أن حوّلت الثورة كثيرًا من ظنوني إلى اعتقادات تُطمئنُني وتغمرني بحب جارف لله ولعباده ولدنياه.

إذا حاصرتك نفسك الأمّارة بالشك بأسئلة تقضّ مضاجعك وتُقلق راحتك عن ما نراه الآن وعما ينتظرنا غدًا، إذا سألتك: هل ما نراه مصارع للظالمين حقًّا أم أنها تبدو لنا كذلك؟ فاترك خواتيم سورة إبراهيم تنزل على قلبك بردًا وسلامًا وأنت تقرؤها بعينَيْ وقلب ووجدان ما بعد ٢٥ من يناير: ﴿ فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٥١﴾ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾.

أمّا كل أسئلة الغد المُقلقة المشروعة فأنت وحدك الذي ستجيب عنها بنفسك وبعملك وبكدّك وعرقك ووعيك وعقلك وعاطفتك، ولو لزم الأمر.. بِدَمك، ألم تعش لترى وتعرف بنفسك أن الله لا يُغيّر ما بقوم حتى يُغيّروا ما بأنفسهم؟ عرفت فالزم.

## حكاية أثناء النوم

وهكذا أيها السادة المشاهدون قرر بطل الفيلم بعد أشهر من اللت والعجن والكر والفر واللف والدوران أن يبني للبطلة خازوقًا طويلًا يمتد إلى «عنان» السماء، ويضع لها عليه علمًا صغيرًا لا يتناسب مع طول الخازوق، وفيما هي تشرئب ناظرة إلى العلم سائلة نفسها: كيف قام البطل بتدبير تكلفة ذلك الخازوق المعدني القميء بينما يشكو لها كل دقيقتين من قلة المال وسوء الحال، فوجئت بالبطل يسدد إلى جنبها جسمًا صلبًا ظنته في البدء خنجرًا، لكنه عاتبها على سوء ظنها، وقال لها إن ذلك الجسم الصلب ليس سوى «وثيقة مبادئ للحياة المشتركة القادمة بينهما»، يرغب أن توقّع عليها بشكل سلمي ودون مماحكات، وهي رأت أن الكلام به نبرة تهديد فاستاءت بشدة، فقال لها إنه معاذ الله لا يُهددها، بل يريد أن يحميها من أخطار محدقة بها، قالت البطلة بابتسامة مرهقة: «تِحمّيني تاني.. ده أنا لسه ما نشِفْتش من الحمومة الأولى»، لم يبتسم البطل وتعامل مع مداعبتها على أنها قلشة عابرة، أخذ يُذكّرها بكل ما تعرضتْ له من مضايقات طيلة الأشهر الماضية على يد شرير الفيلم عكرمة الذي يُقصّر جلابيته ويُطيل ذقنه

ولسانه، قائلًا إن كل ما تعرضتْ له يهون إلى جوار ما يمكن أن تراه على أيدي عكرمة ورفاقه الذين لا يمكن أن يردعهم عنها إلا هو، ذكّرها بأن لغة الحوار لم ولن تكون مجدية أبدًا معهم، فالحوار كما يفهمونه أن تردد نفس آرائهم بقدر بسيط من التعديل، أما أن تقول رأيك كما تراه فأنت إذن تستحق الويل والثبور وعظائم الأمور.

حاولت البطلة أن تخفي ارتعادها مما قاله، ثم قالت: «طيب.. وما هي مصلحتك التي ستجنيها من وراء حمايتي.. أرجوك لا تقل لي إنك تفعل ذلك من أجلي وإنك تحبني.. فقد ثبت لي طيلة الأشهر الماضية أنك تفهم حبي بطريقة مختلفة تمامًا عن الطريقة التي أتمناها»، رأته صامتًا وعلى فمه ابتسامة مرتبكة فتشجعت قليلًا وقالت بصوت بدا أقرب إلى الغمغمة لكنه أخذ يتصاعد حتى كاد يصبح صراخًا هادرًا: «أنت في الواقع لا تحب إلا نفسك.. لو كنت تحبني لحققت لي كل ما أتمناه لعلك تُكفّر عن سيئات صمتك الطويل وأنت تراني أُنتهك وأُهان دون أن تمد لي يد العون.. وعندما خاصمت صبري وانفجرت في وجوه ظُلّامي ظللت واقفًا على الحياد طويلًا قبل أن تنحاز إليّ.. ورغم أنني شككت في نواياك إلا أنني لم أكن أملك بديلًا آخر غيرك.. لم أكن بلهاء كما ظننتني.. أعلم أنك لا تشبهني ولن أشبهك.. عندي عليك ألف تحفّظ وتحفّظ.. لكنني أعلم ظروفي جيدًا.. أعلم حظي العثر الذي سلّمني لمجموعة من اللصوص والقتلة والطغاة كنت دائمًا تحميهم.. أعلم موقعي من العالم الذي يفرض عليّ أن أتحرك بحذر وحيطة.. أعلم أنني لا أمتلك إرادة قوية ولا استقلالًا حقيقيًّا ولا موارد غنية.. كان أملي فيك كبيرًا أن تنقذني وتحميني.. وكنت أراك دائمًا تتعثر وأنت تحاول حمايتي.. فأسأل نفسي: هل يعجز عن حمايتي أم

أنه لا يرغب في ذلك.. هل يُعقل أن يهدر فرصة عمره في اكتساب ثقتي التي قررت أن أمنحها له على طبق من ذهب.. لماذا يفعل هذه الأفعال المريبة؟ لماذا يقف صامتًا وهو يرى عكرمة ورفاقه يُعربدون بينما يقسو على أبنائي المحبين وينتهك حرياتهم؟ هل هذا فشل أم تآمر؟ عذبَتْني الأسئلة طويلًا وعذبني أكثر أنني أعلم مرارة إجاباتها، وأنني أُدرك ندرة اختياراتي وصعوبتها.. قررت أن أصمت وأصبر حتى يأتي مَن يُنقذني من بين يديك بما يرضي الله.. فيحقق لي أحلامي ومطالبي ويعاملني على أنني ملكة متوّجة بدلًا من أن يهينني ويستنزفني كما ظللتَ تفعل ولا زلتَ.. لا تقل لي إذن إنك تريد أن تحميني لوجه الله.. اكشف أوراقك وقل لي أين ستكون مصلحتك في هذه الوثيقة؟».

ضحك البطل ضحكة عصبية وقال لها: «طيب وما له، لنلعب إذن على المكشوف.. الحكاية وما فيها أنني بموجب هذه الوثيقة سأحميكي من عكرمة ورفاقه.. سأجعلك تختارين بعلًا لكي كما تحبين.. سأحمي حياتكِ معه لكي تعيشي في سعادة وهناء»، صرخت قائلة: «في مقابل ماذا؟»، تجاهل ثورتها وقال: «لقد كتبت في هذه الوثيقة بندًا يقول إنني أنا نفسي مِلك لكِ.. لكن ليس من حقك أن تأمريني بشيء لا أنتِ ولا البعل الذي ستختارينه.. ليس من حقك أن تعرفي كم سأحصل عليه من أموال أقتطعها من ثرواتك لأحميكي.. ليس من حقك أن تحاسبيني كيف أنفق تلك الأموال.. ليس لأنني طمعان فيها، بل لأنه لن يعرف أحد مصلحتك أكثر مني.. ليس من حقك أن تأمريني بأي شيء فقرار الدفاع عنك ضد جاراتك الطامعات فيكي أنا وحدي الذي أتحمل تضحياته ولذلك من حقي وحدي أن أتحكم في تفاصيله»، قالت له والأرض تدور بها: «لكنك قلت منذ

قليل إنني مِلك لكِ فكيف تكون مِلكًا لي ولا يكون من حقي أن آمركَ بشيء أو أن أحاسبك على ما تناله من ثرواتي.. هل تكذب عليّ أم تكذب على نفسك؟! لماذا لا تجعلني أعاملك كما تعامل كل البطلات أبطالها.. تحترمه وتهابه وتُجل تضحياته لكنها تراقبه وتحاسبه لكي لا يفسد؟ ألا ترى إلى جاراتي الطامعات كيف يعامِلْن أبطالهن بكل احترام لكنهن لا يتركن له الحبل على الغارب ليفعل ما يريد وقتما يريد؟! ألا أستحق أن تعاملني بنفس الطريقة؟!».

هبَّ واقفًا من جوارها وهو ينتفض غضبًا، رأت في عينيه نظرة مخيفة لم تعهدها من قبل ولم ترها في عينيه طيلة الأشهر الماضية، قال لها وهو يرفع إصبعه الذي طالما حذرها به: «أنت حرة.. إما أن تنصاعي لكل ما أطلبه وتقبلي بحرية منقوصة، أو أفتح لكِ باب الفوضى على مصراعيه وسينحاز كل أبنائك المرهقين المكدودين إليّ لأنهم يعلمون أنني ملاذهم الأخير»، وجدَتْ نفسها تكتسب قوة لم تعهدها من قبل جعلتها تنهض صارخة فيه: «أنت واهم.. ربما تفرض إرادتك الآن وربما غدًا.. لكنك لن تفرضها إلى الأبد.. أنت تنسى أن أبنائي تحرروا ولن يعودوا ثانية عبيدًا لمخاوفهم.. أنت الآن ترتكب خطأً جسيمًا في حق نفسك عندما تفتح أبواب الشكوك على مصراعيها وتتحدى جيلًا عرف الطريق.. أنت تنسى أننا لم نعد نعيش في العالم القديم الذي أدمنت الحياة فيه.. صدقني إذا اغتررت بقوتك وبإرهاق أبنائي فلن يدوم ذلك طويلًا.. أنت لا تُدرك أنهم تغيروا إلى الأبد، ولن يقبلوا بحرية إلا ربع.. لن أخاف من تهديدك لي بعكرمة ولا بغيره.. فأنا قادرة على أن أنتزع حريتي غير منقوصة فقد دفعت ثمنها غاليًا، وليلعنني الله إن فرّطت فيها ثانية»، وقف البطل مذهولًا

أمام روح التحدي التي فاجأته، اقتربت البطلة منه وقالت له بهدوء: «لا تتصور أنني أجهل لماذا تفعل كل هذا.. لا تتصور أنني غافلة عما تُفكر فيه.. أرجوك لا تقف في طريق سعادتي ولا تتحداني لأن مَن حاولوا ذلك قبلك خاب سعيهم.. لا تقف عقبة في طريق مستقبلي الذي هو مستقبلك أيضًا.. وتأكد أنني سأكون قادرة إذا حققت مطالبي على إقناع أغلب أبنائي أن يغضّوا الطرف عن أشياء كثيرة فعلتَها في الماضي.. لا تنسَ أنهم وثقوا فيك من قبل فخذلتهم.. لا تخسرهم إلى الأبد فتُضيعهم وتُضيعني معهم.. لا تجعلنا نخسر فرصة العمر من بين أيدينا فقد لا تأتي ثانية»، التقطت البطلة أنفاسها ثم قررت أن تترك البطل يواجه نفسه قليلًا، لكنها قبل أن تغادر المكان أشارت إلى الخازوق وقالت للبطل باستياء بالغ: «وأرجوك من فضلك ما تعملش الحاجات دي تاني».

## عدت يا أيها الشقي

بالأمس قالها لي صديق عمري حمدي عبد الرحيم لأول مرة منذ عرفته «أنت كبرت»، لم يكن يعرف أن مقولته التاريخية صادفت يوم مولدي، حمدي لا يعرفه لأنني لا أحتفل أصلًا بعيد ميلادي، فأنا رجل يربأ بأبنائه وأهله وأصدقائه أن يقفوا ليُضيعوا وقتهم في النفخ احتفالًا برحيل سنة عاشرتها طويلًا وضاعت فجأة مني، لم أصل بعدُ إلى العمر الذي جعل أبا الطيب المتنبي يقول عن نفسه: «خُلِقتُ أَلوفًا لو رجعتُ إلى الصِّبا.. لفارقتُ شَيبي دامع العين باكيًا»، لكنني كل سنة أتفهم مشاعره وأنا أحزن على رحيل أيام ضاع بعضها دون أن أستفيد منها كما ينبغي، نشأت في قوم لا يحتفلون بأعياد ميلادهم ليس لأن ذلك حرام بل لأنه حرام أن يضيع الإنسان فلوسه على ذلك الهراء. كنت شحطًا عندما احتفلت لأول مرة بعيد ميلادي، كان ذلك في صحيفة الدستور الذبيحة عام ١٩٩٦، نظمته قارئة معجبة كانت طالبة في ثانية ثانوي، أصرت أن تُنظمه في مقر الدستور، ظننت أنها راغبة في شخصي السمين، وبدأت أتهيّب لحظة مواجهتها بأن الأمر لن ينفع لأن قلبي الكسير الخارج لتوّه من أزمة عاطفية نذر نفسه

للمجد والعبث، انتظرت حتى ينتهي عيد الميلاد الذي حضره زملاء الدستور الذين صاروا أعلامًا الآن، لديّ صور التُقطت يومها لوائل الإبراشي وعمرو خفاجي وإبراهيم داود وإبراهيم منصور وياسر أيوب وجمال فهمي وعماد أبو غازي وأكرم القصاص ومحمود الكردوسي وعمر طاهر وعمرو عطوة ومحمد عبد الرشيد وهم يرتدون قمصانًا عجيبة لو رآها أبناؤهم الآن لأصبح موقفهم حرجًا أمامهم، أما إبراهيم عيسى فقد كان أشيكنا لأنه لم يكن يؤمن بالقمصان المشجرة، لم يكن قد دخل عصر الحمّالات بعد؛ لأنه كان يحمل جيلًا بأكمله على كتفيه، انتهى عيد الميلاد لأعرف أن مُنظِّمته كانت مهتمة بعمل عيد الميلاد في مقر الدستور لأنها كانت تريد أن تُصبح صحفية، وكنت أنا الكوبري الذي قررتْ أن تعبر عليه، لكن الصحيفة التي لم يكن في مقدور مالكها إصلاح «الكابنيه» الموجود في حمامها، لم تكن قادرة على استقبال المزيد من قتلى الصحافة.

في العام الذي يليه، كنت قد أحببت فكرة عمل عيد ميلاد لقضاء وقت رائع مع الأصدقاء فنظمته أنا لكي لا يَعبُر من فوقي أحد، أسميته يوم الكينونة، وحضره الفنانون الكبار عادل إمام وصلاح السعدني وعطيات الأبنودي والأستاذ حسين أحمد أمين شفاه الله وعافاه، ونشر إبراهيم عيسى صوره في الدستور، وهي صور لا أجرؤ على إعادة نشرها بسبب القميص الذي كنت أرتديه يومها، فأنا رجل لديه بنات سيصرن يومًا على وش جواز، ولا يرضيك أن يتعرض أبوهن للسخرية. بعدها بأشهر أغلق حسني مبارك الدستور، ووجدت نفسي أنا ونخبة من أفضل وأجدع الصحفيين في الشارع لأعيش سنوات لا أجد فيها الجرأة الكافية لإضاعة مليم أحمر على مناسبة تافهة

مثل عيد الميلاد، بعدها أدركت أن مَن فات قديمه تاه، وعُدت إلى ملازمة اللحظة النفسية التي أبتهج فيها أكثر عندما أستمع إلى فريد الأطرش وهو يغني: «عدت يا يوم مولدي.. عدت يا أيها الشقي»، حتى بعد أن أصبح لديَّ القدرة على عمل عيد ميلاد أكتفي بالاستماع إلى فريد وأنا أغرق في ضحك عاصف وأبدأ في إدهاش زوجتي بأن أحكي لها كل عام حزنًا جديدًا عِشته ولم تسمع به من قبل، كانت زوجتي تستغرب ذلك كل عام، لكنها اعتادته وأظنها أحبته، أو لعلها تحتمله فقط لأنها تحبني، لم أنجح بعدُ في تدمير فكرة إحساسها بذلك اليوم كلية، سيأخذ الأمر وقتًا لكي أقنع أسرتي بأنه أمر تافه أن يحتفل الإنسان بسنة ضاعت من عمره، ليس سهلًا أن تصبح أفكار مقبضة مثل هذه جزءًا من نظرة الإنسان الطبيعية للحياة، لكن المهم ألا تيأس أبدًا.

لماذا رأى حمدي أنني كبرت هذا العام بالذات؟ الحكاية أن لنا صديقًا مشتركًا يعاني من أزمة عائلية ولجأ إلينا ليس التماسًا للحكمة وإنما ضمانًا لأننا لن نفضحه، فوجئ حمدي أنني أخذت أحلل لصديقنا موقفه العائلي من كافة أبعاده وأستعرض له السيناريوهات الممكنة لحلّه، ذكّرني حمدي بأنني حرّضت صديقنا في العام الماضي على التخلص من زوجته لأنها لا تُطاق، حمدي عزا ما حدث إلى أن «الثورة غيّرتنا»، نعم الثورة غيّرت حمدي فعلًا لأنه أُصيب بالضغط بعدها بفعل قوى الثورة المضادة التي لم تُفلح في تدمير صحتي أكثر والحمد لله. الثورة غيّرتني كثيرًا، طعم النصر المبدئي الذي حققه لنا الشهداء جعلني لا أفكر إلا في السُّبل التي نسلكها نحو نصر نهائي نثأر به لدماء الشهداء، لم أعد أكترث بشيء، قبل الثورة كنت أفكر

كثيرًا في ردود أفعال الناس على ما أكتبه، لدرجة أنني كنت الكاتب الذي ابتدع فكرة حجب التعليقات وقام بالتنظير لها، ظللت لمدة ستة أشهر أرفض نشر مقالي على موقع المصري اليوم الإلكتروني هربًا من حملات التكفير والشتائم المنظمة التي كان يتم شنها من البعض ضد الكتاب، عندما اكتشف الناس أن هناك شيئًا اسمه اللجنة الإلكترونية قال بعض أصدقائي إذن فقد كنت تعرف؟! وهززت رأسي بثقة العارف ببواطن الأمور، لكن الحقيقة أنني كنت فقط أحسب ألف حساب لردود أفعال الآخرين، الآن كل ما أريده أن أكتب ما أصدقه بعد أن أبذل مجهودًا في تأمّله وكتابته، ربما لأنني أشعر أن الله كتب لكل مَن شارك في الثورة عمرًا جديدًا، وحرام على من كتب الله له عمرًا جديدًا أن يُضيّع دقيقة واحدة في أن يكون شيئًا آخر غير نفسه. هذا ليس تعاليًا على رأيك في شخصي، المسألة ببساطة إذا كنت حريصًا على متابعتي فأهلًا بك سواء اتفقنا أو اختلفنا، أما إذا كنت مسكونًا بكراهيتي فلن أملك سوى الدعاء لك بأن تُشفى من مرض متابعة شخص تكرهه.

أنا كاتب يحرص على إحصاء أخطائه، لكنني لن أتمكن أبدًا من إحصاء نِعَم الله عليّ، ومع ذلك ستظل النعمة المركزية في حياتي ككاتب، النعمة التي عِشت لكي أُرزق بها فأظل أشكر الله عليها حتى يأتيني اليقين، هي نعمة الوقوف على كوبري الجلاء لمشاهدة مئات الآلاف من أحرار مصر وهم ينتفضون لتحرير بلادهم من الظلم والطغيان، كانت لحظة تستحق أن تنزل بعدها كلمة الفينالة، لكن الله لم يُرِد ذلك ربما لأنه يعلم أنني أحب الحياة بجنون، حتى لو كان مكتوبًا لي أن أُكابد عناء «الآنتي كلايمكس» الذي نتجرعه

حتى الآن، لكنني أؤمن أن الفصول القادمة أجمل بكثير، وأن مصر ستحصل على الفينالة السعيدة التي دفع أحرارها ثمنها غاليًا، أما أنا فحتى تأتي «فينالتي» في الموعد الذي يريده الله عز وجل سأحتفل بعيد ميلادي في الثامن والعشرين من يناير كل عام، هناك عند كوبري الجلاء، هناك حيث تجلَّت رحمة الله على الشهداء، وأشرقت مصر بنور الحرية.

# رسالة من الجندي المجهول

القادة رئيس وأعضاء المجلس الأعلى للقوات المسلحة.. تحية طيبة وبعد:

فأتقدم لكم أنا الجندي المجهول بخالص التحية وصادق الرجاء ألَّا يأتي أحد منكم لزيارة ضريحي في هذا اليوم العظيم كما جرت العادة كل سنة، فأنا اليوم لن أكون هناك، نعم، لقد قررت اليوم أن أغادر هذا الضريح الذي أسكنوني فيه منذ سنوات بعيدة ليزورني فيه اللصوص والسماسرة والأفاقون والمتاجرون بالأوطان ومصاصو دماء الشعوب، يقف كل منهم على ضريحي بضع دقائق يتمتم فيها بآيات لا تجاوز حنجرته وهو يحرص على أن يكسو وجهه بتعبيرات «متحازنة» تلائم همة المصورين المصاحبين له، ثم بعدها يصافح معاونيه في نهب البلاد والعباد، دون أن يقف أحدهم ولو للحظة ليسأل عن معنى وجودي في هذا الضريح، وعما فعلوه ببلادي طيلة العام الذي مضى منذ آخر زيارة أقضّوا فيها مضجعي، هذا ليس مُهمًّا بالنسبة لهم، المهم أن يظهر للناس أنهم يُقدّرون تضحيات الجنود ويُقدسون دماء الشهداء، وما إلى ذلك

من الكلام الإنشائي الذي يقولونه للكاميرات على مشارف ضريحي قبل أن يتركوني ليعودوا من جديد إلى بلد يستبدون به، وشعب يفعلون به الفحشاء، وتاريخ يُهينونه، وحاضر يُعربدون فيه، ومستقبل جعلوه وقفًا لذريتهم من بعدهم، وأظل أنا كما أنا؛ مجهولًا متجاهلًا منتهك الحقوق ضائع الأحلام مسروق الانتصارات، أسأل نفسي: لماذا لم تَذُق بلادي ثمار ما حاربت من أجله؟ وهل ضحيتُ بحياتي ليُكتب لهذه البلاد أن تنتقل من موت إلى موت؟!

لم أعد أذكر كم حربًا خضتها، ولا أريد أن أتذكر فأُقلّب المواجع على نفسي، لست نادمًا على كل الحروب التي قاتلت فيها، لو عاد بي الزمن لقاتلت ثانية بنفس الشجاعة والبسالة، لكنني كنت سأبدأ بعدو آخر غير الذي حاربته، كنت سأبدأ بالعدوّ الذي يستهين بدمي ولا يُقدره حق قدره، كنت سأبدأ بالعدوّ الذي يُحوّل أشلائي إلى سُلّم يصعد به إلى كرسي الحكم، كنت سأفكر ألف مرة قبل أن أفرح بنصر انتزعته من فم العدوّ، لأستمر في محاربة من سيسرق هذا النصر من أولادي ليحوّله إلى أصفار كثيرة ترقد في بنوك البلاد الغريبة بينما يظل أولادي يصارعون الفاقة والمهانة وكسرة النفس.

لم أَعُد أذكر كم نصرًا سُرِق مني حتى اليوم! كم قطرة دم سالت مني لتصبح مدادًا تُكتب به شهادات التكريم للجنرالات المتخمين بالنياشين والأوسمة؟ كم حلمًا تحقق لبلادي من بين كل تلك الأحلام التي تقاسمتها مع رفاق سلاحي في ليالي الجبهة الموحشة ونحن نتأرجح بين الخوف والرجاء؟ إلى أي مدارس ذهب أولادي؟ وفي أي مستشفيات عولج أبي ورقدت أمي؟ هل نال أهلي وناسي الكرامة

التي حاربتُ من أجلها؟ هل ارتفعت رءوسهم عالية إلى السماء أم أخفَضَها الفقر والقهر إلى سابع أرض؟ وما الذي جرى للأرض التي رويتها بدمائي؟ مَن باعها؟ ومن اشتراها؟ ومَن نال خيرها في نهاية المطاف؟

أسئلة كثيرة أثقلتْ صدري وأقلقتْ راحتي، فقررت ألا أبقى هنا أبدًا بعد اليوم، حلفت بدمي أن أخرج إلى كل ميادين التحرير في طول مصر وعرضها، لأبحث عن أبنائي وبناتي الذين قرروا في الخامس والعشرين من يناير أن يستردوا بأيديهم العارية كل نصر سرقه منهم الطغاة، سأجلس معهم على أسفلت الميادين التي كانوا يجلسون فيها دون أن يهابوا الموت، سأحكي لهم عن كل تضحية عشتُها أنا وكل رفاق سلاحي ولم يُسجّلها المؤرخون الذين لم يكتبوا إلا عن بطولات القادة، سأحكي لهم عن الأرواح التي ضحّى بها أبناء الفلاحين والعمال والأفندية لكي يصنعوا وطنًا كبيرًا بحجم تضحياتهم وأحلامهم، سأحكي لهم كثيرًا عن ذكرياتي مع أحمد عرابي ومحمود سامي البارودي وعزيز المصري وأحمد عبد العزيز ويوسف صديق وعبد المنعم رياض ومحمد فوزي والجمسي وسعد الدين الشاذلي... وكل القادة الذين يعلمون أن بطولاتهم لم تصنعها إلا تضحيات جنود مثلي اختاروا أن يكونوا مجهولين لكي تبقى حاضرة في وجدان مصر سيرة عطرة لقادة لم يحلموا بكرسي ولا نفوذ ولا مجد ولا مال، بل حلموا بمصر وماتوا من أجلها على أمل أن يحيا لها يومًا ما قادة ينحنون تواضعًا أمام الشعب المصري، ويُضحّون بكل شيء من أجل حريته وكرامته الإنسانية.

لن تجدوني اليوم هنا في هذا الضريح الموحش، سأكون هناك في التحرير مع الجنود المجهولين الأحياء، سأشاركهم في مخاوفهم من سرقة النصر الذي صنعوه بصدورهم العارية، سأعتذر لهم عن كل لحظة عصيبة دامية وقفنا فيها متفرجين عليهم دون أن نمد لهم يد العون، سأبكي كثيرًا في أحضانهم وأنا أتذكر الفرص التي ضاعت لكي نُعيد إلى بلادنا مجدها، سأواري وجهي من الخجل وأنا أسمعهم يسألونني كيف صَمَتْنا طويلًا على اختزال حروبنا العظيمة في أشخاص يبيعون الوطن أمامنا، بل ويستخدمون دماءنا لكي تكون ذريعة لتوريث أبنائهم، سأطلب منهم العفو والسماح لأننا لم نقف لنصرخ في وجه الفساد والظلم والقهر، بل شاركنا في ترسيخه بالصمت والفرجة والولاء، سأقول لهم إننا لن نسمح لعنادنا وقِصَر نظرنا أن يُضيع مكاسب النصر الذي بدأوا في تحقيقه، سأحلف لهم إن كل جندي مصري يعرف كم هو غالٍ ومقدس ذلك الدم الذي يسيل من أجل الوطن، سأبشرهم أنه طال الوقت أم قصر سيَكتب الله لمصر نصرًا مكتملًا عصيًّا على السرقة، سأكتب أنا وهم هذه الرسالة التي سنختمها بتذكيركم بخير هذه البلاد وشعبها عليكم وكيف أنها تستحق منكم أن تُسلموها إلى أهلها ثانية بعد أن سَلّمت نفسها لأسلافكم قبل ستين عامًا، فانتَصروا وانكَسروا، ووعَدوا وأخلفوا، واستبدّوا وفسدوا، وحاولوا إصلاح ما أفسدوه، واحتكروا الحديث باسم الشعب وكسروا إرادته حتى ظنت الأمم أنه صار نسيًا منسيًّا، وها هو قد انبعث من جديد يرفض أنصاف الحلول وأشباه الأحلام، وأن يتولى أحد بدلًا منه تقرير مصيره.. حتى أنتم.

لن أعودَ إلى ضريحي ثانية، سأبقى هنا مع أبنائي الغاضبين المُحبَطين المُرهقين المكدودين الآملين الحالِمين، سأتركهم ينتهون من هتافهم الغاضب: «يسقط يسقط حكم العسكر»، لأهتف بعلوّ صوتي الحزين على كل ما جرى ويجري: «الجيش والشعب إيد واحدة»، وفي أيديكم أنتم وحدكم يتوقف ما إذا كانوا سيُردّدون الهتاف من خلفي بنفس الحماس الذي فَرِحْنا به قبل أشهر ثم أضعناه من بين أيدينا!!

الله أكبر.. وتحيا مصر.

## تصدير مهم لحماية المستهلك

الكلام ده قبل الثورة، ولا بعد الثورة؟. من حقك أن تسأل هذا السؤال وأنت بصدد إتخاذ قرار شراء هذا الكتاب (إذا كنت تقوم بسرقته من على الإنترنت فليس من حقك السؤال، حَمِّل وأنت ساكت وأنا لن أسامحك على فكرة).

لكي أجيب على سؤالك، أنا بصراحة لا أدري متى ستقرأ هذا الكتاب، هل ستقرأه في نفس عام صدور طبعته الأولى، أم في العام الذي يليه، أم بعدها بعشرة أعوام، أم بعدها بخمسين عاما، لا أدري هل سيكون عندك دم وتشتريه؟ ، لا أدري هل سأكون حيا أم ميتا، وهل ستتذكرني بالخير أم بالشر وأنت تقرؤه، لا أعلم، فـ اللقا نصيب والخطوة نصيب، وأنت ستقرأ هذا الكتاب عندما يكون ذلك من نصيبك، عندما تقرأه إذا شعرت أن السطور التي تقرأها في هذا الكتاب لم يعد لديها صدى في واقعك المحيط بك فقد إكتمل نجاح ثورتنا، أما إذا شعرت أنها لا تزال جزءا من واقعنا، فتأكد إذن أنك لازلت تحتاج إلى ثورة.. ثورة تكتمل.

**بلال فضل**



ISBN 978-977-09-3110-3



دار الشروق
www.shorouk.com


حصريات
مجلة
الابتسامة